حصاد النظر

تأليف
بسام جرار

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م- ١٤٢٩هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فهرس

- المقدمة ٧
- طالوت ٩
- يحيى يوحنا (نظرة في دلالة الاسم) ١٣
- يونس، عليه السلام، فرضية قد تصبح حقيقة ١٧
- سلام على إل ياسين ٢٩
- يعقوب ٣٥
- يا أخت هارون ٤١
- فرضية تتعلق بكيفية خلق المسيح ٤٥
- هما كلمتان ٥١
- ثلاثة إعلانات للمسيح، عليه السلام ٥٥
- سليمان وأيوب ٥٩
- لا ينبغي لأحد من بعدي ٦٣
- وتماثيل ٦٧
- إنما نحن فتنة ٧١
- من المس ٨١
- مسألة حول الطوفان ٨٣
- لما كذبوا الرسل ٨٧
- إنك لغوي مبين ٩١
- ولملئت منهم رعباً ٩٩
- ذلك من آيات الله ١٠٣

- إني فاعل ذلك غداً ١٠٧
- فأتبع سببا ١١١
- في مفهوم القرب ١١٥
- مسألة في الاستواء ١١٧
- سنفرغ لكم أيها الثقلان ١٢١
- بورك من في النار ١٢٧
- مثل نوره ١٣١
- الذي استوقد ناراً ١٣٩
- الإنسان ذلك الكائن!! ١٤٣
- وليس الذكر كالأنثى ١٤٩
- إنزال الأنعام ١٥٣
- إلا الموتة الأولى ١٥٩
- أمة الرحمة المكتوبة ١٦٥
- الإيمان والعمل ١٦٩
- مسألة في التوبة ١٧٣
- ولو تقول علينا ١٧٧
- فوق الذين كفروا ١٨١
- الضالون المكذبون ١٨٧
- وليقترفوا ما هم مقترفون ١٩١
- الخاتمة ١٩٥
- المراجع ١٩٧

المقدمة

هي نظرات في كتاب الله الحكيم نلخصها في مقالات حرصنا أن تكون قصيرة، لعلمنا أنّ أغلب القرّاء ينفرون من المطولات ويرغبون في الوصول إلى الفكرة بسرعة. ولكننا في المقابل ننصح القارئ الكريم أن يقرأ بتركيز، يساعده في ذلك البعد عن التطويل والتفصيل، واستقلال كل مقال بفكرته، ثمّ جدّته التي تتواصل مع الأصالة.

هي حلقة أخرى في سلسلة تهدف إلى تقديم منهجيّة في تدبر النص القرآني الكريم، وتُقدّم أمثلة متعدّدة ومتنوّعة نأمل أن تفتح آفاقاً لكل من يتدبر كتاب الله العزيز. وهي تستهدف بالدرجة الأولى أولئك الذين يجدون مسرّتهم في الفكرة، وتستهويهم المنهجيّة وتستفزهم الجدّة وتشدّهم الأصالة.

هي سياحة الفكرة فيما استشكل بعيداً عن الجدل. تستنطق ملابسات الاستشكال، وتتوسل بالعربيّة المصطفاة، وتستمد من وَصْلِ الرسول، ثم هي أولاً وأخيراً تستلهم اللفظة القرآنيّة. هي عرائس الأفكار تتهادى بأثواب عِزّة الحقيقة ولا تلتفت إلى عُبّاد الوثن، فقد قالوا:" إذا نامت الفكرة انتصب الصنم".

هي نظراتٌ قاصرة في أفق غير متناهٍ. لن تبلغ الكمال ولا تزعم العصمة وتنتظر الاستدراك. مدارجها التقريب ومعارجها التصويب.

طـــالـــوت

جاء في الآية ٢٤٧ من سورة البقرة: " **وقال لهم نبيهم إنّ الله قد بعث لكم طالوتَ مَلِكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحــقُّ بالملــك منه ولم يؤت سعةً من المال، قال إنّ اللهَ إصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم...** ".

ورد في العهد القديم، في سفر صموئيل، قصة مطولة قد تصلح لإلقاء الضوء على ما لم تُصرّح به الآيات الكريمة المتعلقة بطالوت، الــذي قاد بني إسرائيل في مواجهة أعدائهم، واستطاع أن يهزم جيش جُليات الفلسطيني، وفق عبارة العهد القديم، وتمّ لهم استرجاع تــابوت العهــد وإقامة نظام ملكي بعد أن كانوا قبائل متفرقة يحكم كــل قبيلــة مــنهم قاض. وقد جاء ترتيب سفر صموئيل في العهد القديم بعد سفر القضاة.

في المقابل ينبغي الحذر عندما ننظر في العهد القديم، وذلك لما خــالط الحقيقة من أوهام ومزاعم وأساطير، وحتى لا نقع فيما وقع فيه بعض أهل التفسير من القدماء، من التوسع عند الأخذ من الإسرائيليات مــن غير تمحيص.

لم يُصرّح القرآن الكريم باسم النبي الذي لجأ إليه بنو إسرائيل يطلبون ملكاً يوحد كلمتهم ويقودهم في صراعهم مع أعدائهم من أهــل الــبلاد الأصليين. أما العهد القديم فقد صرّح بأنه يُدعى صُموئيل. وفي الوقت

الذي يُصرح فيه القرآن الكريم باسم الملك المختار: " **إن الله قد بعث لكم طالوت**.. "، نجد أنّ العهد القديم يسميه شاؤل. وهذا، كما هو واضح، تباين كبير في الاسم. أما قائد الأعداء فقد صرّح القرآن الكريم بأنّ اسمه **جالوت**، وهذا قريب من الاسم جوليات الوارد في سفر صموئيل.

لقد أصبح مبتوتاً عند علماء التاريخ والآثار بأنّ العهد القديم لا يصلح كمستند تاريخي؛ لكثرة ما ورد فيه من أخطاء تاريخيّة تتعلق بالأماكن والأشخاص والأزمان والأحداث. ونحن هنا لسنا في مقام إقامة الحجة على صدقيّة القرآن الكريم، وإنما في مقام تنبيه المؤمنين إلى بعض أسرار العبارة القرآنية.

أليس من اللافت أن يكون اسم الملك الذي نُصِّب ليقود بني إسرائيل هو **طالوت**، وأن يكون اسم قائد الأعداء من الفلسطينيين القدماء هو **جالوت**!؟

يلاحظ أنّ الاسمين ينتميان إلى لغة واحدة، بل يتماثلان في الحروف إلا الحرف الأول. وواضح أنّ كل اسم منهما يتكون من مقطعين المقطع الثاني مشترك بينهما، وهو الواو مع التاء أي: (طال + وت) (جال+ وت).

فماذا يمكن أن يعني هذا التماثل!؟

تشير التقديرات التاريخية إلى أنّ بني إسرائيل أقاموا في فلسطين ما يُقارب القرنين من الزمان وهم قبائل يحكمها القضاة وتعيش مع السُكّان الأصليين من الفلسطينيين القدماء. وغني عن البيان أنّ علاقتهم مع السكان الأصليين كانت تتراوح بين السلم والحرب، مما يعني أن يتم التأثر والتأثير المتبادل، وهذا من بدهيات الاجتماع البشري. والظاهر أنّ الاسم طالوت كان اسماً فلسطينياً، وهذا يشير إلى تأثر الإسرائيليين بالفلسطينيين حتى على مستوى الأسماء، مما يدلل على التفوق الحضاري للفلسطينيين القدماء، وهو أمر متوقع، لأنّ الإسرائيليين كانوا يعيشون المرحلة القبليّة بعد التيه الذي امتد أربعين سنة بعد خروجهم من مصر.

وهناك من يرى أنّ الأقليات الخائفة قد تعمد إلى أن تتسمى بأسماء الأكثرية المسيطرة كنوع من الحماية وإخفاء الهوية. وقد يعزز مثل هذا القول ما ورد في الآية ٢٤٦ من سورة البقرة على لسان الإسرائيليين: " وما لنا ألا نقاتلَ في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا... "، ومثل هذه الحالة من الضعف هي التي دعت بني إسرائيل إلى أن يطلبوا من نبيٍّ لهم أن يدعو الله تعالى أن يبعث ملكاً يجمع كلمتهم، كما أشارت الآيات الكريمة من سورة البقرة.

تُزاد الواو والتاء في اللغة العربية للمبالغة في الصفة، مثل: الجبروت، الملكوت، الطاغوت... وهذا يقوي احتمال أن يكون اسم **طالوت** مبالغة في صفة إيجابية اتصف بها مما جعله مؤهلاً فيما بعد لأن يملك

ويقود. وهذا يفتح الباب لاحتمال أن تكون صفته هذه قد طغت على اسمه الأصلي فسمي بها، وهذا كثير في أسماء القدماء. ولا شك أنّ العبرة في الأسماء لما شاع وتمّ تداوله. أمّا ما يطلقه الأهل من أسماء فلا وزن لها إن هي توارت واندثرت. فأي الأسماء هو الأحق أن يُطلق على البطل المسلم فاتح الأرض المقدسة، يوسف بن أيوب أم صلاح الدين الأيوبي!؟

قد يكون المدخل لفهم سر هذا الاسم هو ما ورد في الآية ٢٤٧ من سورة البقرة:" **قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم** ..."، فقد كان ذا **طَوْل** في العلم والجسم. وما قيل في طالوت يُقال في جالوت، مع اختلاف في الصفة التي استحق ذلك الجبّار أن يوصف بها؛ فقد كان صاحب صولات وجولات في أرض المعركة، إلى درجة أن يقول الإسرائيليون عند اللقاء:" **لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**"، فقد قدّموا جالوت في الذكر على جنوده، بل كأنه في نظرهم نصف الجيش.

يحيى يوحنا
نظرة في دلالة الاسم

جاء في الآية ٧ من سورة مريم:" **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى** ...". واللافت أنّ النبي **يحيى** بن زكريا، عليهما السلام، يُدعى في الأناجيل المعاصرة بـ **يوحنا المعمدان**. وتذكر الأناجيل المعاصرة أنّ **يوحنّا** كان يُعمّد الناس في نهر الأردن، وأنّه عمّد المسيح، عليه السلام. ويبدو أنّ التعميد، الذي هو تغطيس في الماء كطقس ديني، يرمز إلى الصبغ بالصبغة الدينيّة. ومن هنا دُعي يحيى، عليه السلام، في الأناجيل بـ **المعمدان**.

لماذا هذا الاختلاف في التسمية في الوقت الذي نجد فيه أنّ أسماء مثل: إبراهيم، زكريا، يعقوب، يوسف، إسماعيل، إسحاق، ... تُذكر في القرآن والأناجيل المعاصرة والتوراة المعاصرة من غير اختلاف إلا في لهجة النطق بالاسم؟! وقد يكون مفتاح الإجابة في اسم **يحيى**، عليه السلام، عند الصابئة، حيث أنهم يُسمّونه **يحيى يوحنا**. واللافت هنا أنهم جمعوا بين الاسمين. أفلا يدعونا ذلك إلى محاولة اكتشاف السر؟!

يزيد عدد الصابئة في العالم اليوم على مائة ألف نسمة، يعيش معظمهم في العراق. وهم يؤمنون بأربعة أنبياء؛ أولهم آدم وآخرهم يحيى، عليهم السلام. وقد اختلف العلماء في معنى **الصابئة**. وربما يكون من

الأصوب أن نَرجع إلى لغتهم المسمّاة المندائيّة، حيث تلفظ الغين همزة، فبدل أن يقولوا **صبغ** نجدهم يقولون **صبأ**. فالصابئة هم إذن **الصابغة**، وسمّوا بذلك لأنّ مِن أهم طقوسهم الدينية الاصطباغ بالماء، أي التعميد بالمفهوم النصراني.

الحاء في اللغة العربية هي **هاء** في اللغة المندائيّة، لذا نجدهم يلفظون اسم يحيى، عليه السلام، هكذا: **يهيا يوهنا**. وإذا علمنا أنّ **حنا** مأخوذة من **الحنان**، وإذا علمنا أنّ المقطع **يو** يأتي أحياناً، في بعض اللغات السامية، بمعنى **ذو** يصبح من السهل أن ندرك أنّ معنى لفظة **يوحنا** يحتمل أن يكون (**ذو الحنان**). وعليه يكون **يحيى** هو الاسم العلم و **يوحنا** هو الصفة، أي أنه كان يُدعى، عليه السلام، **يحيى ذو الحنان**. وقد يفسر هذا لنا جمع الصابئة بين الاسمين، أو بمعنى أدق بين الاسم والصفة.

فالقرآن إذن يذكر الاسم العلم ليحيى، عليه السلام، والأناجيل المعاصرة تذكر صفته البارزة التي اشتهر بها. واللافت هنا أنّ القرآن الكريم لم يذكر **الحنان** إلا مرة واحدة، وذلك عندما كان يتكلم عن يحيى، عليه السلام، في الآيتين ١٢ و ١٣ من سورة مريم:" **يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا**"؛ أي آتاه الله تعالى الحكمة والحنان، وهو حنان من لدن الخالق. ويحق لكل أحد أن يسأل: إذا كان يحيى، عليه السلام، قد أُوتي **حناناً من لدن الخالق** فلا بد أن يبرز هذا الخلق وهذه الصفة في سيرة يحيى بشكل جلي، فأين نجد ذلك في سيرة حياته، عليه السلام ؟!

نقول ببساطة: نعم، نجد ذلك في غَلَبة الصفة على الاسم العلم عند النصارى، إلى درجة أن لا يُذكر الاسم العلم لديهم اطلاقاً، فهو عندهم يُدعى **يوحنا**. ونجد ذلك أيضاً في اقتران الصفة بالاسم العلم عند الصابئة فهو عندهم يُدعى **يحيى يوحنا**...فتأمل!!

يونس، عليه السلام

فرضية قد تصبح حقيقة

جاء في الآيتين ٨٧، ٨٨، من سورة الأنبياء:" **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنتُ من الظالمين، فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك نُنجي المؤمنين**".

ذو النون هنا هو يونس، عليه السلام. وأكثر أهل العلم على أنّ النون هو الحوت، وتجمع على نينان. وقد ورد في سورة القلم:" **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت** ..." القلم: ٤٨. ومعلوم أنّ الصاحب من المصاحبة، وقد حصل أنْ صاحَبَ يونسُ، عليه السلام، الحوتَ فترة من الزمن، فلا إشكال. أمّا **ذو** ففيها ملازمة كملازمة الصفة للموصوف. **والذي نرجّحه هنا أنّ نون ليس هو الحوت وإنما الحرف المعروف.** ويلزم من هذا القول أن نبين لماذا سمي يونس، عليه السلام، بذي النون، ولماذا يسمى الحوت نوناً؟!

جاء في مختار الصحاح للرازي في مادة **بلس**:"أبلس من رحمة الله أي يئس، ومنه سمي إبليس وكان اسمه عزازيل". وهذا فيما نراه خطأ بيّن، لأنّ القرآن الكريم ينص على أنّ اسمه إبليس قبل أن ييأس من الرحمة؛ انظر قوله تعالى:" **إلا إبليسَ أبى أن يكون من الساجدين، قال يا إبليسُ مالك ألا تكون من الساجدين، قال لم أكن لأسجد لبشر**

خلقتَه من صلصال ..." الحجر ٣١-٣٣. وكذلك الآيات ٧٥ – ٧٨ من سورة ص، تنص على أنه خوطب بـ إبليس قبل أن يُطرد من الرحمة. وعليه نقول: إنّ أبلس من إبليس، لا أنّ إبليس من أبلس. فبعد أن أصبح إبليس يائساً من الرحمة ووجدت البشرية ووجدت اللغة العربيّة، اشتقّ الفعل أبلس من اسم إبليس. فالاشتقاق هنا إذن من الاسم. وما قلناه في إبليس نقوله في نون، فاسم يونس معناه كما سنرى هو ذو النون. وعليه فهناك احتمال أن يكون الحوت قد عُرف بـ نون بعد قصته مع ذي النون (يونس).

بالرجوع إلى الآية ٨٨ من سورة الأنبياء نلاحظ أن كلمة ننجي كُتبت في المصحف هكذا: (نجي)، على الرغم من أنها تُقرأ فقط نُنجي. فلماذا حذفت النون عندما كان الكلام عن ذي النون؟! ويصبح الأمر لافتاً بشدة عندما نعلم أنّ سورة القلم تفتتح بقوله تعالى:" **ن والقلم وما يسطرون**"، وقبل نهاية السورة يقول سبحانه:" **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحبِ الحوت إذ نادى وهو مكظوم**". فلماذا حذفت النون عندما وصف، عليه السلام، بذي النون؟! مع ملاحظة أنّ قصة يونس، عليه السلام، وردت أيضاً في سورة القلم التي تُستهل بحرف النون، وملاحظة أنه عليه السلام لم يوصف فيها بذي النون، بل هو فيها صاحب الحوت.

يُحتمل أن تكون هذه إشارة إلى أنّ النون هو الحرف وليس الحوت؛ ففي سورة الأنبياء حذفت النون التي هي حرف، وفي سورة القلم

استهلت بنون الذي هو حرف، والقَسَم فيها، كما هو واضح، بالحرف والأداة والكتابة:"**نون والقلم وما يسطرون**".

إذا قرأتَ سفر **يونا** في العهد القديم باللغة العبرية تجد أنه يتحدث عن قصة النبي الذي التقمه الحوت وكان رسولاً إلى أهل نينوى. وهي القصة نفسها في التوراة المترجمة إلى العربية وتجدها في سفر **يونان**. أما في القرآن الكريم فهي قصة النبي **يونس**، عليه السلام. فهو إذن في عند اليهود يونا، وعند النصارى يونان، وفي الإسلام يونس.

اللافت أنّ الاسم يونان هو أيضاً اسم بلد أوروبي يقع على البحر المتوسط، وعندما بحثنا عن أصل التسمية وجدناها تتعلق بشخص له قدسية، بل رُفع عندهم إلى مرتبة الآلهة. ووجدنا أنّ البحر بالقرب من اليونان يسمى يونيوس، وهذه اللفظة قريبة جداً من لفظة يونس. وعندما نعلم أنّ السين في اللغة اليونانية هي علامة رفع للعلم المذكر، مثل: أرسطوطالس، ببندريوس، كرملّس ... الخ، ندرك أنّ هناك احتمالاً راجحاً أن يكون الاسم **يونا** هو في اليونانية يوناس، ومعلوم أنّ الألف قد تُخفف في اللفظ لتصبح **يونس**.

وإذا عرفنا أنّ النون في اللغة اليونانيّة هي علامة نصب نُدرك أنّ يونان هي في الأصل يونا، فإذا نُصب على النداء، مثلاً، يكون يونان. وبما أنّ الأصل في العَلَم المذكر أن يكون مرفوعاً فهو إذن يونس.

سبق أن أشرنا- عند مناقشة اسم يحيى- إلى أنّ المقطع (**يو**) يأتي في بعض اللغات السامية القديمة بمعنى **ذو**، وعليه يمكن أن يكون معنى الاسم يونا في الأصل السامي هو (ذو- نا)، ويكون معنى يونان في

أصله السامي (ذو – نان) أي ذو النون. وبالتالي يمكن أن يكون معنى الاسم يونس هو ذو النون. والسين كما عرفنا علامة رفع تلحق العَلَم المذكر.

علاقة يونس باليونان علاقة مُرجَّحة

يظن البعض خطأً أنّ Greece هو الاسم الحقيقي لبلاد اليونان. والصحيح أنّ هذا الاسم هو وصف سلبي أطلقه أعداء اليونانيين عليهم. أما هم فيقولون إنّه اليونان نسبة إلى شخص له في الأساطير اليونانية مرتبة الآلهة. وتنص مقدمة سفر يونان في العهد القديم على أنّ النبي يونان هو من مواليد فلسطين، وقد دعاه الله ليحمل رسالة التوبة إلى مملكة أشور، التي كانت عاصمتها نينوى ... وعندما تسلّم يونان الرسالة من الله أبت عليه روحه الوطنية أن يبشر بالخلاص أمّة وثنيّة، فحاول الهرب من الله على ظهر سفينة. ولكن بعد سلسلة أحداث طُرح يونان إلى أعماق البحر، فابتلعه حوت ... وأخيراً أذعن يونان إلى أمر الرب فانطلق إلى نينوى ليبشر أهلها بالخلاص ...".

انظر كتاب الحياة ترجمة تفسيرية، ص ١٠٨٨

وفق العقيدة الإسلامية يُستبعد تماماً أن يرفض نبي كريم توبة أهل نينوى بعد أن أنذرهم العذاب، كما ينص سفر يونان. والملاحظ أنّ عدداً من المفسرين قد تأثروا بسفر يونان هذا عند تفسيرهم للآية الكريمة.

ورد في السيرة أنه عندما ذهب الرسول، عليه السلام، إلى الطائف أساء إليه الصغار والكبار إلا ما كان من عدّاس الذي هو من نينوى،

فسأله الرسول، عليه السلام:" من مدينة الرجل الصالح أخي يونس بن متّى؟". فهذا الحديث- إن صح، وهو غير صحيح- لا يشير إلى أنّ نينوى هي البلد التي نشأ فيها يونس، عليه السلام، ولا يشير كذلك إلى أنها البلد الذي آمن ليونس بعد إذ دعاهم. وعليه لا يبعد أن يكون يونس من نينوى ثم أُرسل إلى قومٍ آخرين بعد أن غاضب قومه. ولا يبعد أيضاً أن يكون من فلسطين ثم أُرسل إلى أهل نينوى. ولا يبعُد أن يكون من نينوى وأُرسل إلى أهلها. كل هذه الاحتمالات قائمة. وإذا لم يصح الحديث الوارد في السيرة فيمكن أن ينشأ لدينا احتمالات أخرى.

تشير الآيات الكريمة من سورة الأنبياء إلى أنّ يونس، عليه السلام، قد ترك المكان الذي كان فيه بعد مغاضبته قومه أو غيرهم. وتشير الآيات أيضاً إلى أنّ يونس، عليه السلام، ظنّ أنّ بإمكانه أن يغادر المكان الذي كان فيه لأنّ الله تعالى لم يُضيّق عليه في ذلك، وأنّ هذا الظن كان في غير محلّه. أمّا الآيات من سورة الصافات وفيها:" **إذ أبق إلى الفلك المشحون**"، فتشير إلى أنّ ذهابه كان كذهاب العبد الآبق الذي فرّ من سيده. ولا نستطيع أن نجزم بأنّه كان نبياً عندما فعل ذلك، فالاحتمالات كثيرة، ولا يُبنى على الاحتمال، وإن كان الأليق بمقام النبوة أن نقول إنّ ذلك كان قبل النبوة.

بعد مغادرته مغاضباً، وبعد حصول قصته عليه السلام مع الحوت، أرسله الله تعالى إلى مدينةٍ يسكنها ما يقارب المائة ألف نسمة، كما نصت الآية ١٤٧ من سورة الصافات:" **وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون**"، فالآية الكريمة لا تصرّح، بل ولا تشير إلى أنه رجع إلى

بلده الذي غادره. ولو كان قد رجع إلى بلده وقومه لكان ظهر ذلك في النص القرآني البليغ. وحتى لو ذهبنا إلى درجة تصديق ما ورد في سفر يونان، من أنّه رجع إلى أهل نينوى بعد أن أنذرهم، فإنّ ذلك لا يعني أنّه لم ينتقل إلى غيرهم.

أما قوله تعالى في الآية ١٤٧، ١٤٨ من سورة الصافات:" **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا فمتعناهم إلى حين**"، فيشير إلى ضخامة البلد الذي أرسل إليه عليه السلام، كما ويشير إلى إيمان أهل هذا البلد. أي أنّهم تأثروا به وسلكوا طريقه. والمعروف تاريخياً أنّ بلاد اليونان قبل الميلاد كانت تتألف من المدن الممالك، فكانت المدينة تتألف من عدد من السكان يكفي لتشكيل مملكة مستقلة قادرة على الدفاع عن نفسها. وإشارة القرآن الكريم إلى إيمان هذه المدينة يعني أنهم قد تأثروا بيونس، عليه السلام. ولا بد أن يظهر هذا التأثر في واقعهم؛ فأما على مستوى الأسماء فغلب اسم يونان على المنطقة، وحتى البحر فاسمه إلى الآن بحر يونيوس. وأما على المستوى اللغوي فأنت تجد أنّهم قد تأثروا بالأبجدية العربية، التي ترجع إلى أصل سوري أو عراقي، فهم لا يزالون يقولون: ألفا، بيتا، جاما، دلتا، ... بل إنّ سبعين في المائة من جذور اللغة اليونانية ترجع إلى أصول عربية، كما تشير بعض الدراسات المعاصرة.

إذن نحن بحاجة إلى تعميق الدراسات، فلعلنا نكتشف أنّ جذور النهضة الفكرية اليونانية ترجع إلى عهد يونس، عليه السلام، كما ترجع جذور

النهضة الفكرية في عصور العباسيين إلى عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم.

وفق رواية سفر يونان يتّضح أنّ البحر هو البحر الأبيض المتوسط. ووفق المنطق الجغرافي نُرجِّح أنه فعلاً البحر الأبيض المتوسط، لأنّ أقرب بحر يمكن أن يوجد فيه حيتان كبيرة هو البحر الأبيض المتوسط، والذي هو أقرب إلى نينوى (الموصل) من بحر العرب. ثم إنّ فلسطين، الأرض المقدّسة، كانت مهاجر إبراهيم، عليه السلام، وعليه فمن المتوقع أن يهاجر يونس، عليه السلام، إليها.

سورة يونس هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف. واللافت أنها أول سورة في ترتيب المصحف سميت باسم نبي من الأنبياء. وقد جاءت سورة يونس تتصدر مجموعة السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة **الر** هكذا: (يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر)، واللافت أنها جاءت متسلسلة في ترتيب المصحف هكذا: (١٠،١١،١٢،١٣،١٤،١٥). فلماذا يونس أولاً على الرغم من كون إبراهيم، عليه السلام، هو الأبرز في النص القرآني، وكذلك يوسف وهود، عليهم السلام؟!

وإليك الآية الأولى من كل سورة:

يونس:"**الر تلك آيات الكتاب الحكيم**"،

هود:" **الر كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير**"،

يوسف:" **الر تلك آيات الكتاب المبين**"،

الرعد:" **الر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**"،

إبراهيم:" **الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**"،

الحجر:" **الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين**"،

واللافت هنا أنّ الآيات الست، التي استهلت بها السور، قد أكدت على موضوع الكتاب. وقد يوحي هذا إلى أنّ ليونس، عليه السلام، دوراً بارزاً في مسالة الكتاب إلى درجة أن يسمى ذا النون أي ذا الحرف. أمّا لماذا النون دون باقي الحروف؟! فسيأتي الكلام إن شاء الله.

وردت الإشارة إلى قصة يونس، عليه السلام، في سورة الأنبياء وسورة الصافات وسورة القلم. واللافت أنّ القصة لم ترد في سورة يونس، بل لم يرد الحديث حول يونس، عليه السلام، في سورة يونس. ولكن ورد الحديث حول قوم يونس؛ جاء في الآيات ٩٨ من السورة:" **فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلا قومَ يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**". فقط آية واحدة ذكرت قوم يونس، وعلى الرغم من ذلك فقد سميت السورة يونس!!

هذا يعني أنّ إيمان هذه الأمّة والمنفعة التي تحصّلت نتيجة هذا الإيمان هي النقطة المركزية التي لا بد من الانتباه إليها في قصة يونس، عليه السلام. واللافت أنّ الآية قد ختمت بقوله تعالى:" **ومتعناهم إلى حين**"، أما الآية ١٤٨ من سورة الصافات فختمت: " **فآمنوا فمتعناهم إلى**

حين". وفي هذا لفت الانتباه إلى أهميّة الحديث عن الفرصة التي حصلت لهم في الدنيا نتيجة إيمانهم، مما يعني أنّه قد يكون بإمكاننا أن نرصد ذلك تاريخياً. ويجدر هنا أن نلفت الانتباه إلى أنّ عدد الآيات التي تنتهي بحرف **النون** في سورة يونس هو ٩٨ وهذا يوافق رقم الآية التي ذكر فيها قوم يونس فسميت السورة يونس. وهذه الملاحظة تضاف إلى غيرها من الملاحظات المتعلقة بحرف النون وعلاقته بيونس، عليه السلام.

يُقدّر شُرّاح العهد القديم زمن النبي يونان (يونس) حوالي القرن الثامن قبل الميلاد. ومعلوم أنّ مثل هذه التقديرات لا يُركن إليها، فقد يكون زمنه أبعد من ذلك بقرون، ففي الوقت الذي يقدر البعض زمن إبراهيم، عليه السلام، بـ ١٨٠٠ ق.م نجد البعض الآخر يذهب إلى أنّ زمنه يقارب ٣٠٠٠ ق.م. وما نلمح إليه هنا هو احتمال أن يكون يونس، عليه السلام، هو من وَضَع الأبجديّة- وما ترمز إليه من حساب- والتي تُعتبر من أهم الاكتشافات في تاريخ البشريّة. ومعلوم أنّ اليونانيين من أوائل من تأثر بهذه الأبجدية، بل أخذوها بترتيبها المعروف، وأخذوا ما ارتبط بها من حساب، وهو ما يُسمّى بحساب الجُمّل. ثم تأثرت باقي الأمم الغربيّة بهذه الأبجديّة؛ فأنت تجد، على سبيل المثال، أنّ ترتيب أبجدية اللغة الإنجليزية يتوافق بنسبة مع ترتيب الأبجدية العربية، انظر: (K،L،M،N) و (ك، ل، م ،ن) وانظر: (Q،R،S،T) و (ق، ر، ش ، ت). (A،B) و (أ،ب).

فالفرضيّة عندنا تقول: **إنّ يونس، عليه السلام، هو الذي وضع الأبجدية التي أخذها اليونانيون عنه ثم نقلوها إلى غيرهم من الغربيين، ومن هنا سمي ذا النون، على اعتبار أنّ النون ترمز إلى حرف الكتابة.**

ولكن لماذا النون؟!

أ. ملاحظات تتعلق بالقرآن الكريم:

نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد **أقسم بالحرف والأداة والكتابة** عندما قال في مستهل سورة القلم- لاحظ القلم-:" **نون والقلم وما يسطرون**". فكانت النون هنا هي التي ترمز إلى الحروف.

ونلاحظ أنّ القرآن الكريم ٦٢٣٦ آية، وتنتهي كل آية بكلمة تسمى **فاصلة**، فهناك إذن ٦٢٣٦ فاصلة. واللافت أنّ أكثر من ٥٠% من الفواصل القرآنية تنتهي بحرف النون.

ب. ملاحظات تتعلق بالعربيّة والإعراب والتصريف:

تشير الدراسات الحديثة إلى أنّ اللغة العربية هي اللغة الأقرب إلى اللغة الساميّة الأم. ولسنا هنا في مقام إثبات ذلك. واللافت في هذه اللغة أنّ لحرف **النون** الدور المركزي في الإعراب والتصريف، ويكفي للتدليل على ذلك ملاحظة الآتي:

١. تنوين الفتح والضم والكسر: أي تُختم اللفظة بالنون.

٢. التثنية (ا + ن) والجمع (و + ن) و (ى + ن) أي تختم اللفظة بنون.

٣. نون النسوة: تختم اللفظة بنون.

٤. نون التوكيد، والنون المخففة.

٥. إنْ، أنْ، إنّ، أنّ.

٦. إثبات النون وحذفها في الإعراب، وبالذات في الأفعال الخمسة.

ولا تجد في اللغة العربيّة، والتي هي الأقرب إلى الساميّة الأم، حرفاً آخر كحرف النون يقوم عليه التصريف والإعراب.

ج. **الكتابة:**

يمكن الزعم بأنّ الذي وضع صور الحروف الأبجديّة قام أولاً بوضع صورة النون (ـــن) ثم قام باشتقاق باقي صور الحروف من هذه الصورة، وهذا أمر يسهل ملاحظته عند استعراض صور الحروف. وأخيراً فهناك ملاحظات عدديّة قرآنية قد ترتقي بهذه الفرضية إلى مستوى النظرية آثرنا أن نتريث في طرحها لعلها تتضح.

سلام على إل ياسين

جاء في سورة الصافات: " **وإنّ إلياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدعون بعلاً وتذرون أحسنَ الخالقين، اللهَ ربكم وربَّ آبائكم الأولين، فكذبوه فإنّهم لمُحضَرون، إلا عباد الله المُخْلَصين، وتركنا عليه في الآخِرين، سلام على إل ياسين**، ....." الصافات: ١٢٣-١٣٠

اللافت أنّ كلمة إلياس كتبت في المصحف هكذا: إلياس. أمّا إلياسين فكُتبت هكذا: **إل ياسين**. ومعلوم أنّ رسم المصحف في قول الجماهير هو توقيفي، أي عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحياً. وكتابة إل ياسين على هذه الصورة تكشف لنا أنّ لفظة **إلياس** هي في الحقيقة **إل ياس**. والـ **إل** في اللغة العربية – والتي هي الأقرب إلى اللغة السامية الأم – تعني الإله، وهي في بعض اللغات الساميّة إيل، وهذا يعني أنّ إسرائيل هي إسرا إيل، وجبرائيل هي (جبرا إيل أو جبري إيل). وإذا كانت إسرا إيل مضافاً ومضافاً إليه، كما هو الأمر في عبد الله، فإنّ الأمر في إل ياس يختلف، فقد قُدِّمت **إيل** على **ياس**.

تُصرّح الآيات الكريمة من سورة الصافات أنّ قوم إلياس كانوا يعبدون البعل. وقد صرّح جمهرة من أهل التفسير بأنّ إلياس هو **إيليَّا** الوارد ذكره في أكثر من سفر من أسفار العهد القديم. وقد دفعهم إلى هذا القول ما تُصرّح به أسفار العهد القديم من أنّ **إيليا** جاء ليُقاوِم عبادة البعل التي انتشرت في بني إسرائيل متأثرين بالأمم المجاورة. يضاف

إلى ذلك أنّ اسم إلياس قريب في لفظهِ من اسم **إيليا** الـذي هـو فـي الحقيقة (إيلي يا) من غير حرف السين. واللافت أنّ التلميذ الذي خلف **إيليا** في دعوته إلى التوحيد اسمه إليشع، وهذا قريب جداً مـن اسـم اليسع الوارد في القرآن الكريم. والفارق، كما هو ملاحظ، ينحصر في همزة القطع والوصل وفي السين، التي هي في السامية الأم أيضاً سين وتقلب في العبريّة شيناً.

يذهب بعض أهل التفسير إلى أنّ **إلياس** هو نفسه **إدريـس**، ويـدللون على قولهم هذا بالقراءة التفسيريّة المنسوبة إلى عبد الله بن مـسعود، رضي الله عنه، حيث قرأ:" **وإنّ إدريس لمن المرسلين ... سلام على إدراسين**". وهذا الذي ذكرناه تجده عند عامّة أهل التفسير، وقد رجّحه بعضهم. ويمكن أن يُعزز هذا القول الملاحظات الآتية:

أولاً: ورد اسم **إدريس** في سورة مريم وسورة الأنبيـاء، وورد اسـم **إلياس** في سورة الأنعام وسورة الصافات. وهذا يعني أنّ الاسمين لـم يجتمعا في سورة واحدة. ولو اجتمعا في سورة واحدة لكان ذلك دلـيلاً على اختلاف المُسمّى.

ثانيـاً: ذكر القرآن الكريم في سورة الأنعام أسماء ١٨ نبياً بينهم اسـم إلياس، وذكر في سورة الأنبياء أسماء ١٧ نبياً بيـنهم اسـم إدريـس. فعندما يذكر في سورة الأنعام، في أربع آيات، أسماء ١٨ نبياً يكـون احتمال ذكر اسم إدريس و إلياس معاً كبيراً جداً. وعندما يـذكر فـي

سورة الأنبياء ١٧ اسماً يكون احتمال **اجتماع الاسمين في إحدى السورتين** أكبر. فما معنى عدم اجتماع الاسمين في سورة واحدة ؟!

ثالثاً: ينتهي اسم **إدريس** بحرف السين وكذلك اسم **إلياس**، وهذا يُشعر بأنّ اللغة واحدة. ويُعزز ذلك ما نعرفه من أنّ السين في اللغة اليونانيّة هي علامة رفع للعلم المذكر- كما أشرنا عندما حللنا اسم يونس في البحث السابق.

رابعاً: جاء في الآيتين ٥٦، ٥٧ من سورة مريم:" **واذكر في الكتاب إدريس إنّه كان صدّيقاً نبيا، ورفعناهُ مكاناً عليا**"، فالآية تشير إلى رفعه عليه السلام. واللافت أنّ النبي الوحيد الذي تنص بعض أسفار العهد القديم على رفعه هو **إيليّا**، ومن ذلك ما جاء في الإصحاح الثاني من سفر الملوك الثاني:" ... وفيما هما يسيران ويتجاذبان أطراف الحديث، فصلت بينهما مركبة من نار تجرها خيول نارية نقلت إيليّا في العاصفة إلى السماء". ولذلك هم ينتظرون رجوعه قبل يوم القيامة، كما ينص العهد القديم ويشير إلى ذلك العهد الجديد أيضاً.

فالذي رُفِع في القرآن الكريم هو **إدريس**، والذي رُفع في العهد القديم والجديد هو **إيليّا**، وابن مسعود، رضي الله عنه، يقول إنّ إلياس هو إدريس، ألا يجعل ذلك الاحتمال قوياً.

خامساً: يونس في القرآن الكريم هو أيضاً ذو النون، ومحمد هو أحمد، ويعقوب هو إسرائيل. ولا يستبعد إذن أن يكون إدريس هو إلياس. ونقول بلغة أخرى: يعقوب هو اسم النبي ولكنه بعد حادثة معينة دُعي

إسرائيل، فغلب الاسم الجديد أو اللقب الجديد، إلى درجة أن يُقال: **بنو إسرائيل** ولا يقال: **بنو يعقوب**. من هنا هناك احتمال أن يكون الاسم **إدريس** هو الأصل وبعد حادثة معيّنة سمي **إلياس**.

إذا كان إيليا هو إلياس فإنّ ذلك يؤشر إلى احتمال أن يكون له، عليه السلام، علاقة باليونان، لأنّ السين في اليونانية علامة رفع تلحق العلم المذكر، ونلحظ ذلك في الكثير من الأسماء اليونانية. والاسم إيليّا مكون من مقطعين (إيلي+ يا)، ويرى بعض شراح العهد القديم أنّه يعني (الهي يهوه)، وهذا يعني أنّ إيلي تعني إلهي، وهذا صحيح. أما المقطع (**يا**) فلا دليل على أنّ المقصود به هو **يهوه**. والأقرب أن يكون الاسم **إيلياهو** هو الذي يعني إلهي يهوه.

ويُشكِل عند النصارى مثل هذه الترجمة لاسم إيليّا، لأنّ المسيح قال في حق يحيى، عليهم السلام، في إنجيل متّى الإصحاح ١١:" وإن شئتم أن تصدّقوا، فإنّ يوحنا هذا، هو إيليّا الذي كان رجوعه منتظراً". وبما أنّ إيليّا النبي غير يحيى، وقد جاء قبله بقرون، فإنّ العبارة تعني أنّ يحيى وإيليّا يلتقيان في وصف واحد وهو، في ظننا، ما أورده متّى على لسان المسيح: " الذي رجوعه منتظراً"، وفي ترجمات أخرى:" المزمع رجوعه". فالمشهور عند اليهود أنّ إيليّا سيرجع قبل يوم القيامة، وكذلك الأمر بالنسبة ليحيى وفق العبارة المنسوبة إلى المسيح. وهذا يعني أنّ معنى الاسم **إيليّا** يُحتمل أن يكون: (المزمع رجوعه). وحتى يتّضح المقصود نقول: عندما تكون حادثة الرفع مشهورة، وعندما يكون الرجوع منتظراً، يغلب أن يطلق على

المرفوع اسم فيه معنى تمنّي الرجوع، مثل: الله يُرجع، الرب يُعيد، إلهي يعيده ...الخ، ألا ترى أنّ اسم المهدي المنتظر قد غلب على اسمه الحقيقي. وهذا يعني أنّ علينا أن نبحث إن كان المقطع (يا) يأتي في اللغات السامية القديمة بمعنى (يرجع، يعود).

يلفت الانتباه في سورة الصافّات أنّه بعد الكلام عن نوح، عليه السلام، يقول تعالى:" سلام على نوح في العالمين"، وبعد ذكر قصة إبراهيم، عليه السلام، يقول:" سلام على إبراهيم"، وبعد ذكر موسى وهارون، عليهما السلام، يقول: " سلام على موسى وهارون"، أما بعد ذكر إلياس، عليه السلام، فيقول:" سلام على إل ياسين"، أي أنّ السلام ليس فقط على إلياس وحده بل على مجموع، ومن هنا أضيفت الياء والنون.

إذا صحّت فرضيّة أنّ اسم إيليّا فيه معنى أنّ الله يُرجع، فناسب أن يكون السلام على الذين **سيرجعهم الرب**، أي الذين رُفعوا وسيتم رجوعهم. ومعلوم لدينا رفع عيسى وإدريس، عليهما السلام. وهناك مؤشرات نصيّة تشير إلى احتمال رفع يحيى، عليه السلام، أيضاً. وليس هذا مقام تفصيل ذلك.

وبما أنّ الرب المُرجِع واحد، وبما أنّ الراجعين جماعة، فناسب أن يتم فصل **إل** التي تعنى الإله عن ياس، ليتم إضافة علامة الجمع إلى المقطع الذي يشير إلى الراجعين. وأخيراً نجد من المناسب أن نلفت الانتباه إلى أنّ السورة التي تسبق سورة الصافّات في ترتيب

المصحف هي سورة **يس**، والتي تُستهل بالحرفين **يس** ويلفظان هكذا: (يا سين)، وتختم السورة بقوله تعالى:" **وإليه ترجعون**".

يـــعـــقـــوب، عليه السلام

جاء في الآية ٧١ من سورة هود:" **وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب**"، والمقصود هنا سارة زوجة إبراهيم، عليه السلام. واللافت أنه تمّ تبشيرها بإسحاق ومن بعده ولده يعقوب. والتسمية، كما هو واضح في النص الكريم، هي من قِبل الوحي، وهذا يُحتّم أن يكون للاسم دلالة أو أكثر تتعلق بالمولود القادم ووظيفته المباركة. والذي نراه أنّ لفظة يعقوب تدل على المبالغة في أنّه سيكون ذا عقب ونسل ممتد. وهذه الصفة يمكن أن تكون في أكثر الناس، ولكن المقصود هنا أنّ سلسلة النبوة ستكون في عَقبه، عليه السلام. وهذا ما كان فعلاً في الواقع، فكل من جاء من الرسل والأنبياء بعده عليه السلام كانوا من ذريته، حتى خُتمت هذه السلسلة المباركة بيحيى، عليه السلام. أما عيسى، عليه السلام، فكان ميلاده على خلاف المعهود بحيث انقطعت عنده العلاقة النسبية المستندة إلى المولد.

ويَرِدُ على هذا، قول من قال من المفسرين إنّ الاسم يعقوب ورد في القرآن الكريم ممنوعاً من الصرف، وهذا يدل على أنه أعجمي وليس بعربي. والجواب عن هذا الاعتراض يمكن أن نستعيره من كلام المختص رءوف أبو سعدة في كتابه (من إعجاز القرآن) حيث يقول:" ولم يفطنوا إلى أنّ **عَقَبَ** العبري يكافئ **عَقَبَ** العربي مبنى ومعنى".

وهذا يعني أنه مُنع من الصرف لأنه أعجمي، ولكن اشتقاق الاسم ومعناه مطابق لما هو في العربية.

ويَرِدُ عليه أيضاً أنّ إسحاق، عليه السلام، هو الذي أنجب يعقوب، فلماذا لم يكن هو العاقب، ولماذا ليس إبراهيم، عليهم سلام الله جميعاً؟! نقول: أما بالنسبة لإبراهيم، عليه السلام، فقد جاء في الآية ٢٧ من سورة العنكبوت:" **ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب...**"، فالبداية كانت باصطفاء إبراهيم، عليه السلام، واتخاذه خليلاً، وكل من جاء بعده من نسله عليه السلام كان فيه تمام النعمة عليه. أما بالنسبة لإسحاق فواضح أنّ المسألة هي اختيار ربّاني، فقد تم اختيار يعقوب ليكون البداية في هذه السلسلة بحيث تكون النسبة إليه دون من سبقه من الآباء. والمتدبر للقرآن الكريم يجد أنّه ينص على اصطفاءٍ خاص لآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، على الرغم من كون آل عمران هم من نسل إبراهيم، عليهم السلام. جاء في الآية ٣٣ من سورة آل عمران:" **إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين**"، فقد كُرِّم عمران بجعله بداية سلسلة مباركة، كما كُرم إبراهيم، عليه السلام، بجعله بداية سلسلة مباركة من الأنبياء والرسل.

والآل: هم من يؤول إليهم الإنسان، أي يرجع إليهم أو يرجعون إليه، بنسب أو اعتقاد أوتابعيّة. فإسحاق، عليه السلام، يؤول لإبراهيم، عليه السلام، بنسب واعتقاد وتابعية، فقد كانت نبوته في سياق رسالة

إبراهيم، عليه السلام. وبما أنّ يعقوب هو من ولد إسحاق، عليهم السلام، وبما أنّ الأنبياء من نسله يؤولون إليه فإنّ ذلك يشير إلى بداية تتعلق بالدين والإمامة وليس بالنسب فقط. وعليه فإنّ آل موسى هم الأنبياء الذين جاءوا من نسله، عليه السلام، وعلى خطاه في الاعتقاد والتشريع. وآل هرون هم من جاء بعده من الأنبياء من نسله، عليه السلام، وعلى خطاه، وآل داود، عليه السلام، كذلك. ولا قيمة للنسب إذا لم يُشفَع بتابعيّة. جاء في الآية ١٢٤ من سورة البقرة:" **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُهُ بكلماتٍ فأتمهنَّ قالَ إنّي جاعلكَ للناس إماماً، قال ومن ذريتي، قال لا ينالُ عهدي الظالمين**". والتابعيّة هي الأهم وهي الأوّل الحقيقي. ومن الملاحظ أنّ القرآن الكريم عندما يتكلم عن أهل الفضل والإيمان والتابعيّة من ولد يعقوب يقول:" آل يعقوب"، أما عندما يتحدث إلى أبنائه، عليه السلام، يقول:" يا بني إسرائيل".

جاء في الآية ٦ من سورة يوسف:" **وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمتهُ عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحاقَ...**"، وجاء في الآية ٦ من سورة مريم، وذلك على لسان زكريا وهو يسأل الله تعالى أن يهبه من يرثه في دعوته:" **يرثني ويرثُ من آلِ يعقوبَ...**"، فلا تزال الصلة قائمة، ولا تزال الوراثة قائمة، حتى بعد مجيء موسى وهارون وداود، مما يدل على تميّز يعقوب بأمور دينية بدأت فيه واستمرت في نسله ولم تنقطع بمجيء رسالات موسى وهارون وداود، عليهم السلام. وقول

زكريا، عليه السلام:" ويرثُ **من** آل يعقوب"،" وليس:" ويرث آل يعقوب"، يوحي بأنّ المطلوب بعض ما ورَّثهُ آل يعقوب، لأنّ هناك أموراً جاء بها الرسل من بعده لم تكن من ميراثهِ عليه السلام.

واستجيب لزكريا، فكان يحيى، عليهما السلام، آخر نبي في هذه السلسلة المباركة، وآخر من أعقبَ يعقوبُ من أئمة الهداية والرشاد، وكان آخر وارث يؤول إليه الإرث المبارك. وفي ذلك إرهاص بانتقال النبوة إلى نسل إسماعيل، عليه السلام، إيذاناً بختم النبوّات وبالتالي الرسالات. وبذلك يكون الله تعالى قد استجاب دعوة إبراهيم، عليه السلام، حيث جاء في الآيات ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩ من سورة البقرة:" **وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربنا تقبّل منا إنك أنت السميعُ العليم، ربنا واجعلنا مسلمَينِ لك ومن ذُرّيتنا أمّةً مسلمةً لكَ وأرنا مناسِكَنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويُعلِمُهم الكتاب والحكمةَ ويُزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم**". فختْمُ وراثة يعقوب وانتقال النبوة في نسل إسماعيل، عليه السلام- لتختم بمحمد، صلى الله عليه وسلم- فيه استجابه لدعاء ورجاء خليل الرحمن، عليه السلام، بل هي مشيئة الله تعالى كانت رجاءً أجراه على لسان خليله ليستجيب له، تكريماً له ولخاتم النبيين، عليهم السلام، ولخير أمة تشهد على الأمم. ومن لطائف دلالات الأسماء أنّ معنى الاسم **إسماعيل** عند المحققين هو " **سَمِعَ اللهُ** ".

أما عيسى، عليه السلام، فهو ابن مريم، ولا يرجع في نسبه إلى يعقوب، عليه السلام، لأنّ الانتساب في دين الله وشرعه يكون للأب، جاء في الآية ٥ من سورة الأحزاب:" **ادعوهُم لآبائهم هو أقسطُ عند الله...**"، فانتساب عيسى لمريم، عليهما السلام، قطع العلاقة النسبية، على الرغم من كونه حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل، جاء في الآية ٦ من سورة الصف على لسانه عليه السلام:"... **مُصدقاً لما بين يديَّ من التوراةِ ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمهُ أحمد** .." وبذلك قُطعت الصلة النسبيّة وبقيت الصلة الحقيقية؛ وهي الأبوة والأمومة والبنوة والأخوة في الدين. هذا في المسار الأول الذي بدأهُ يعقوب، عليه السلام. أما المسار الثاني، الذي بدأ بإبراهيم وإسماعيل، فختمه خاتم النبيين، عليهم صلوات الله وسلامه. ويبدو أنّ الختم كان تاماً قاطعاً للنسب أيضاً. ومن هنا وجدنا أنه لم يعش للرسول، صلى الله عليه وسلم ولد ذكر، لينقطع النسب القائم على أساس الولادة، والذي لا فضل لنا فيه ولا اختيار. ويبقى النسب الحقيقي والوراثة الحقيقية، القائمة على أساس من الإرادة والاختيار. جاء في الآية ٤٠ من سورة الأحزاب:" **ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين...**"

جاء في الآية ٦ من سورة الأحزاب:" **النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُهُ أمّهاتُهُم...**"، فالنبي، عليه السلام، أكثر من أب، فهو

أولى بالمؤمنين من أنفسهم. أما زوجاته عليه السلام ففي مقام الأمهات، وبذلك اكتمل النسب. وإبراهيم، عليه السلام، هو الأب الذي أطلق علينا اسم المسلمين، كما يفعل الآباء عندما يطلقون الأسماء على الأبناء، جاء في الآية ٧٨ من سورة الحج:" ... **مِلّةَ أبيكم إبراهيمَ هو سماكُم المسلمين من قَبل**...". وعليه يصبح مفهوماً وفي غاية الوضوح قولنا في كل صلاة:" اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم..."، فكما كانت الصلاة على إبراهيم، عليه السلام، وعلى آله الكرام، فلتكن يا ربنا الصلاة كذلك على محمد وعلى كل من آل إليه بتابعيّة واعتقاد. آمين.

يا أخت هارون

جاء في الآية ٢٨ من سورة مريم:" **يا أختَ هارون ما كان أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانت أمّكِ بغيـاً**". هذا قول قوم مريم عندما جاءَتهم، عليها السلام، تحمل مولودها ولم يعهدوا لها زوجاً من قبل. وقد أشكل على البعض قوله تعالى على لسان القوم:" **يـا أخـت هـارون...**". أمـا المبشرين- المنصّرين- الذين اعتادوا اختراع الإشكالات حول النص القرآني الكريم، فزعموا أنّ هذا القول من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها القرآن الكريم!!

جاء في صحيح مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال:" **لمـا قـدمتُ نجران سألوني: فقالوا:" إنكم تقرؤون: يا أخت هارون، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟! فلما قدمتُ على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سألته عن ذلك فقال:" إنهم كانوا يُسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**". فنصارى نجران في زمن الرسول، عليه السلام، يحتجّون بالبعد الزمني بين مريم وهارون، عليهما السلام، على الرغم من كون الآية الكريمة لم تُصرّح بأنّ اسم هارون الوارد هنا على لسان القوم هو هارون النبي. والقرآن الكريم لم يقل اطلاقاً إنّ مريم هي أخت هارون النبي.

الصحابي الكريم المغيرة بن شعبة يسأل الرسول، عليه السلام، عن ذلك فتأتي الإجابة لتزيل اللبس، إن وجد عند البعض. وعلى الرغم من

وضوح إجابة الرسول، عليه السلام، إلا أنّ أهل الضلال من المبشرين لا يتورعون عن الكذب على أتباعهم، من أجل أن يقولوا إنّ في القرآن الكريم أخطاءً. وكأنهم بذلك يسوِّغون لهم الأخطاء الواردة في الكتاب المقدّس عندهم.

ومن أجل مزيد من الضوء على المسألة نقول:

أولاً: في الحديث الشريف تصريح بأنّ لفظة هارون في الآية الكريمة لا يُقصد بها هارون النبي. فلم يعد الإشكال إذن موجوداً من جهة البعد الزمني بين مريم وهارون النبي. فالاسم هارون الوارد في الآية لا يخص هارون النبي، وإنما كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم.

ثانياً: على الرغم من وضوح ذلك فقد بقي لدينا أكثر من احتمال لفهم كلام القوم وإدراك مقصودهم بمثل هذا التعبير. ومن هذه الاحتمالات أن يكون لمريم أخ شقيق، أو أخ لأب، أو أخ لأم، اسمه هارون. وما الذي يمنع ذلك، ألم يكونوا يسمّون بأسماء أنبيائهم ولا يزالون؟! بل إنّ أسماء الأنبياء تكون هي السائدة في المجتمع. ومن هنا نجد أنّ اسم محمد، مثلاً، يتكرر بشكل لافت بحيث لا يكاد يخلو منه بيت مسلم.

ويأخذ البعض على هذا الاحتمال أنه لم يرد في تاريخ النصارى أنّ لمريم أخاً اسمه هارون. والجواب على هذا بسيط؛ فعدم ورود الإثبات لا يعني النفي، وهذا بدهي في العقل. يضاف إلى ذلك أنّ الأناجيل الأربعة التي اعتمدت في القرن الرابع الميلادي قد اختلفت في سرد الوقائع المهمة وليس فقط الأسماء. ولو رجعتَ إلى شجرة نسب المسيح في إنجيل متى وشجرة نسبهِ في إنجيل لوقا لوجدت العجب.

فالاختلاف في سلسلة أسماء الآباء والأجداد كبير. وإذا كان ذكر حادثة كلام المسيح، عليه السلام، في المهد قد أهمل تماماً، فمن باب أولى أن يهمل اسم أخٍ لأب أو لأم...الخ.

ثالثاً: تذكر التوراة المعتمدة لدى اليهود والنصارى أنّ لهارون النبي أختاً اسمها مريم وأشير إليها في أكثر من سفر. ومعلوم أنّ مريم، عليها السلام، هي ابنة عمران، كما ينص القرآن الكريم. واللافت أنّ التوراة المعتمدة لدى اليهود والنصارى تقول إنّ والد هارون وموسى، عليهما السلام، هو عمرام. وتحويل النون إلى ميم للتخفيف معهود في الناس؛ فاسم برهان، مثلاً، ينطقه العامّة أحياناً برهام. وقد نص الحديث الصحيح على أنّ هارون هو ابن عمران.

رابعاً: فمريم الأولى – أخت هارون النبي– هي ابنة عمران. ومريم أم عيسى، عليهم السلام، هي ابنة رجل اسمه عمران أيضاً. ومتوقع ومعهود في عائلة مؤمنة أن تقتدي بالأنبياء والصالحين، فتتسمى بأسمائهم، كما ينص الحديث الشريف. ومن كان اسمه عمران يتوقع منه أن يسمي موسى وهارون ومريم.

خامساً: إذا كان اسمك إبراهيم فأنت أبو خليل، وإذا كان اسمك خليل فأنت أبو إبراهيم. وإذا كان اسمك علي فأنت أبو الحسن، وإذا كان اسمك الحسن فأنت أبو علي...الخ. هذا هو المتعارف عليه في الكثير من المجتمعات العربية والإسلامية، لأنّ علياً رضي الله عنه، مثلاً، كان يُكنَى بأبي الحسن، وهكذا ...الخ. وقياساً على هذا يرجح لدينا أن تكون الآية الكريمة قد كشفت عن مثل هذا العرف في لسان قوم مريم،

فكل من تسمَت بمريم هي عندهم أخت هارون، لأنّ مريم الأولى هـي أخت هارون النبي، عليه السلام. أما لماذا لم تكن أخت موسى؟! فلأن نص التوراة المعتمدة عندهم تربط بين مريم وهارون أكثر مما تـربط بين مريم وموسى، عليهم السلام.

وهذا الوجه ينسجم تماماً مع قول الرسول، صلى الله عليه وسلم:" **إنهم كانوا يُسمّون بأنبيائهم والصالحين قـبلهم**". وبـذلك يكـون القـرآن الكريم، وهو يروي كلام القوم، قد كشف عن عُرفٍ تعارفه الناس في ذلك الزمن، مما يشير إلى تجذُّر الدين وتأثيره في نفوسهم، وعلى وجه الخصوص عمران وأهله، وإن كان لا يشير بالضرورة إلـى حقيقـة تديّن واستقامة بقية القوم.

فرضية تتعلق بكيفية خلق المسيح، عليه السلام.

جاء في الآية ٤٥ من سورة آل عمران:" **إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يُبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم...**".

اختلف أهل التفسير في معنى كلمة **المسيح**، وقد تأثر بعضهم بما ورد في العهد القديم والجديد فزعموا أنّ كلمة المسيح غير عربية. ومعلوم وفق الدراسات المعاصرة أنّ اللغة العربية – في رأي الكثيرين– هي أقرب اللغات إلى اللغة السامية الأم. وعليه فإنّ حرف السين في كلمة المسيح هو الأصل، ثم أبدل في العبرية شيناً، وليس العكس كما يرد في كتابات البعض من القدماء ومن المعاصرين. وما نختاره هنا دون تردد أنّ كلمة المسيح هي عربية، ومادتها مسح.

المسيح: على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي ممسوح. ومن المعاني التي ذكرها أهل التفسير وتستحق الذكر هنا قول من قال: إنه، عليه السلام قد مُسح من الأقذار وطُهّر من الذنوب. وكذلك قول من قال: إنه قد مسح بالبركة، فهو المبارك، انظر الآية ٣١ من سورة مريم:" وجعلني مباركاً أين ما كنت...".

واللافت أنّ تسمية المسيح كانت من قِبل الوحي قبل ميلاده عليه السلام، مما يعني أنّ للاسم أسراراً قد تتعلق بخَلْقِهِ أو بدعوته أو بوظيفته...ومن هنا يجدر بنا أن نسلط الأضواء على كل الأسماء التي جاء بها الوحي، ومنها اسم المسيح، الذي جاء ثلاثياً، أي: المسيح، عيسى بن مريم، وكأنه رد على عقيدة التثليث.

والمتدبر للآيات الكريمة يدرك أنّ عيسى هو الاسم العلم، بدليل أنّ القرآن الكريم في صيغة النداء يقول:" يا عيسى"، وبدليل أنه في حال سرد أسماء الأنبياء لا يقول إلا عيسى. أما لفظ المسيح فظاهر أنه اللقب الذي اشتهر به عليه السلام، حتى أصبح يميّزه أكثر من اسمه العلم. وإضافة **ال** إلى مسيح تشير إلى أنه إذا كان هناك من مسيح حق فإنّه هو عليه السلام.

وما نريد أن نطرحه في هذا المقام هو فرضية تم وضعها بعد مداولات بين عدد من أعضاء ندوة نون وبعضهم أصحاب اختصاص علمي. يقول الأخ عماد القاضي ــ أستاذ الكيمياء الحيوية ــ مُعرّفاً بالكروموسومات كمقدمة لطرح الفرضية:

" يحتوي جسم الانسان على ٤٦ كروموسوماً، أو على ٢٣ **زوجاً** من الكروموسومات. وتعني هذه الزوجية أنّ لكل كروموسوم شبيهاً له من الناحية الشكلية ومن ناحية احتوائه على الصفات المختلفة. وهذا يعني أنّ الكروموسوم ٧ ، مثلا، يحتوي على عدة صفات، ولنفرض أنها صفة لون العيون، وبالتالي فإنّ الكروموسوم الشبيه له – أو الزوج الثاني له – يشبهه في الشكل والطول وفي احتوائه على صفة لون العيون أيضاً. أي أنّ لكل كروموسوم لدى الإنسان نسخة شبيهة له من حيث الشكل واحتواؤها على الخريطة الوراثية نفسها.

وقد لفت نظر العلماء أنّ الزوج الأخير من الكروموسومات، وهو زوج الكروسوم الجنسي، يُظهر اختلافا جلياً في الشكل؛ فالكروموسوم الجنسي **X** أطول بشكل واضح من الكروموسوم الجنسي**Y**، والذي

يشكل فقط ثلث طول الكروموسوم الأنثوي X ، مما دعا العلماء للتساؤل حول مدى التشابه بينهما بسبب اختلافهما في الطول والشكل.
ولقد تبين في المصادر العلمية المختلفة – ومنها المجلة العلمية العالمية Nature – أنّ الكروموسومين الجنسيين متشابهان، وبأنّ لهما الأصول نفسها من حيث احتواؤهما الصفات، وذلك في المنطقة المتقابلة بين X و Y ويصل التشابه بينهما إلى أكثر من ٩٩%.(المرجع: مجلة Nature العدد ٣١١ الصادر في ١٣ سبتمبر ١٩٨٤ ص ١١٩-١٢٣). وما يعنينا أن نلفت الانتباه إليه هنا هو أنّ بعض المقالات العلمية تذكر أنّ الكروموسوم الذكري **Y هو نسخة متآكلة من الكروموسوم الجنسي X** ".
على ضوء هذه المعلومة العلمية الجديدة في حقل العلم نضع الفرضية الآتية:
" **بما** أنّ الكروموسوم Y هو في حقيقته X متآكل، فهناك احتمال أن يكون المَلك المكلف قد قام بعملية مسح جزئي في الكروموسوم ٢٣ الجنسي – في بويضة مريم عليها السلام – فنتج عن ذلك XY . فالكروموسوم الطويل غير الممسوح هو X والقصير هو Y الذي كان X فمسح جزئياً فأصبح Y بعد أن كان زوج الكروموسومات في البويضة هو XX ".
وليكتمل تصور الفرضية نقول:

أولاً: يمكن أن تكون تسمية المسيح جاءت من كيفية خَلقهِ المفترضة، وهي مسح الكروموسوم **X** ليتحول إلى **Y** فنتج مولود ذكر هو المسيح (الممسوح) عليه السلام.

ثانياً: في حالة الاستنساخ ينتج من الخلية المذكرة ذكر ومن المؤنثة أنثى، أما هنا فنتج من البويضة – التي هي خلية مؤنثة – ذكر. هو في الحقيقة ابن مريم، ومريم فقط.

ثالثاً: يبدو أن المسح كان في بداية التبييض، أي قبل انقسام البويضة. ومعلوم أن البويضة في بداية التبييض تكون ٤٦ كروموسوماً.

رابعاً: بإمكانك الآن أن تعيد النظر فتسأل: لماذا ابتعدت مريم عن أهلها – بالذات أهلها وليس غيرهم من الناس –، ولماذا اتخذت من دونهم حجاباً وهم أهلها، ولماذا خافت خوفاً شديداً عندما رأت الملك في صورة رجل؟!

هل لأنها كانت في بداية التبييض، وتريد أن تستحم بعد الطهر، وفوجئت وهي في هذا الحال بالملك في صورة رجل؟!

خامساً: يبدو أن عملية النفخ التي قام بها الملك – والتي كانت مريم عليها السلام مهيأةً لها – لم تضف شيئاً وإنما هي طاقة موجهة لمسح الجزء المطلوب مسحة ليكون ابن مريم فقط.

سادساً: وبإمكانك أن تعيد النظر لتسأل: هل كان الطعام الخاص الذي يتنزل على مريم، عليها السلام، نوعاً من التهيئة الجسدية قبل عملية المسح؟!

سابعاً: وهناك أسئلة أخرى تبحث عن جواب منها: لماذا:" انتبذت مـن أهلها مكاناً شرقياً"، نعم، لماذا شرقياً؟!

هما كلمتان

جاء في الآية ٥٩ من سورة آل عمران:" **إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**". يلفت انتباه المتدبر للآية الكريمة قوله تعالى:"**فيكون**"، هكذا بصيغة المضارع بدل صيغة:" **فكان**". ومعلوم أنّ صيغة المضارع تدل على الاستمرارية. ولا يعنينا هنا البحث عن مخرج لغوي للمسألة، وإنما نريد أن نبين بأنّ استخدام الفعل المضارع هنا له دلالة زائدة على الفعل الماضي ينبغي التنبيه إليها.

جاء في الآية ١١ من سورة الأعراف:" **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...**"، فالآية الكريمة تُصرّح بأنّ خلق آدم، عليه السلام، هو خلق لنا جميعاً، لاحظ قوله تعالى:" **خلقناكم...صورناكم..**". واستخدام **ثمّ** الدالة على التراخي يشير إلى أنّ الخلق تم أولاً، ثم بعد فترة كان التصوير بالصورة الإنسانية، ثم بعد فترة طُلب من الملائكة أن تسجد لآدم، عليه السلام، والذي كان خلقه بمثابة خلق لجميع البشر.

جاء في الآية ٧ من سورة السجدة:"...**وبدأ خلق الإنسان من طين**"، فالطين إذن كان البداية، أما النهاية فكانت كمال الخلق البشري. أي آدم، عليه السلام. وبين ذلك أمور يعلمها الخلاق العليم. وبما أنّ خلق آدم هو خلق لنا جميعاً، كما تُصرّح آية الأعراف، فإنّ ذلك يعني أن

خلق آدم مستمر فينا حتى يولد آخر إنسان في هذه الدنيا. فآدم، عليه السلام، لا يزال ينسل (يكون) حتى يأذن الله تعالى باكتمال الوجود الآدمي، وعندها تنتهي خلافة الإنسان على الأرض لينتقل إلى عالم الآخرة.

وبما أنّ مثل عيسى كمثل آدم، عليهما السلام، فهو أيضاً كآدم تستمر كينونته إلى يوم القيامة. وبذلك يظهر لنا بعض وجوه الحكمة من بقائه حياً في السماء لينزل قبل نهاية الدنيا. أما لماذا لا يُعتبر عيسى، عليه السلام، كباقي البشر، فيكون استمراراً لكينونة آدم، عليه السلام؟! فنقول:

جاء في الآية ١٧١ من سورة النساء:"...**إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه...**"، فعيسى، عليه السلام، كلمةٌ جديدةُ ونَفخٌ جديد، ولم يكن استمراراً للكلمة الأولى التي أوجدت آدم، عليه السلام. فهناك كلمة أولى ونفخٌ من روح الله، فكان آدم ومن سيتناسل منه إلى يوم القيامة. وهناك كلمة ثانية ونفخ ثانٍ، فكان عيسى، ولا يزال يكون كما آدم، عليهما السلام.

فإذا كان عيسى، عليه السلام، قد خُلق على خلاف قانون التناسل السائد بين البشر، وكان خلقه خلقاً خاصاً فيه تشريف، فإنّ آدم، عليه السلام، قد خلق أيضاً على خلاف قانون التناسل في عالم الحيوان، وخلق خلقاً خاصاً فيه تشريف. وعليه فينبغي أن تُترك مسألة التطور في خلق الكائنات للعلم ليبت في صحتها أو عدم صحتها، لأنّ آدم،

عليه السلام، منقطع الصلة بما قبله، لأنه قد خلق خلقاً خاصاً فيه تشريف، وهو لم يأت بقانون الزوجية- تماماً كعيسى، عليهما السلام- وإنما كانت الزوجية قانوناً في نسله بعد أن خُلقت زوجه من نفسه.

ثلاثة إعلانات للمسيح، عليه السلام

تُستهل سورة مريم بالحديث عن قصة مولد يحيى، عليه السلام. ثم تفصّل قصة مريم وحملها بالمسيح، عليهما السلام. ثم يأتي التعقيب على القصة:" **ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحقِّ الذي فيه يَمترون. ما كان لله أنْ يتخذَ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقولُ له كن فيكون. وإنّ الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم. فاختلف الأحزابُ من بينهم...**" مريم:(٣٤-٣٧). اللافت في هذا التعقيب الآية ٣٦:" **وإنّ اللهَ ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**"، فقد ذكر بعض أهل التفسير أنّ المتكلم هو المسيح، عليه السلام، وأنّ العطف هنا على قوله – وهو في المهد – في الآية ٣٠:" **قال إني عبد الله...**". ولا شك أنّ مثل هذا العطف لافت نظراً لوجود الفاصل المتمثل بالآيتين ٣٤ و ٣٥ فبعد أن انتهى من كلامه، عليه السلام، عاد ليتكلم مرة أخرى!!

جاء الإعلان الأول لعيسى، عليه السلام، وهو طفل في المهد:" **قال إنّي عبد الله آتانيَ الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً**".مريم:(٣٠،٣١،٣٢،٣٣) وهذا الإعلان فيه تفنيد لكل المزاعم التي ستأتي في مستقبل الزمن، وفيه بيان لحقيقته ووظيفته، عليه السلام.

أما الإعلان الثاني، الذي ورد في الآية ٣٦ من سورة مريم، فقد جاء بعد بعثته عليه السلام، بدليل أنّ ذلك قد ورد على لسانه عليه السلام بعد النبوة؛ انظر الآيات من ٦٣ إلى ٦٥ من سورة الزخرف:" ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأُبينَ لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون. **وإنّ الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم**. فاختلف الأحزاب من بينهم فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يومٍ أليم". وبذلك يتبين أنّ هذا الإعلان كان بعد بعثته، عليه السلام. وقد يفسر هذا لنا وجود الفاصل في سورة مريم بين إعلانه في المهد وإعلانه بعد البعثة، عليه السلام. ومما يؤكد هذا ما ورد في الآية ٤٩ من سورة آل عمران في سياق خطابه، عليه السلام لبني إسرائيل:" **ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم.... ومصدقاً لما بين يديَ من التوراة...**"، ثم تأتي الآية ٥١:" **إنّ الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**". وعندما نعلم أنه لا يوجد في النص القرآني الكريم غير هذه المواقع الثلاثة لمثل هذا الإعلان، يتحقق لدينا أنّ الإعلان في الآية ٣٦ من سورة مريم هو للمسيح، عليه السلام، وذلك بعد بعثته.

وكما يبدو فالمسيح، عليه السلام، له في سورة مريم إعلان ثالث، جاء أيضاً بعد فاصل أطول من الإعلان السابق، وذلك بعد الانتهاء من ذكر بعض الأنبياء، عليهم السلام، ثم جاء التعقيب الآتي:" **فخلفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلقون غَياً. إلا**

من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنةَ ولا يظلمون شيئاً. جناتِ عَدْنٍ التي وعد الرحمنُ عباده بالغيب إنّه كان وعده مأتيـاً. لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعـشياً. تلـكَ الجنّةُ التي نورثُ من عبادنا من كان تقياً. وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلْفنا وما بين ذلكَ وما كان ربك نسياً".مـريم:(٥٩ - ٦٤)

وكما تلاحظ يحار المتدبر في معرفة المتكلم في هذه الآية، هـل هـم أصحاب الجنة، كما ذهب إليه بعض أهل التفسير، أم هو جبريل، عليه السلام، كما نُقل في أسباب النزول؛ فقد جاء في صحيح البخاري عـن ابن عباس، رضي الله عنهما: قال رسول الله، صلى الله عليه وسـلم، لجبريل، عليه السلام:" ما يمنعك أن تزورنـا أكثـر ممـا تزورنـا"، فنزلت:" **وما نتنزّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بـين ذلك وما كان ربك نسياً**".

فالحديث في سبب النزول صحيح، ولكن السياق لا يساعد علـى هـذا الفهم. فكيف نجمع بين ما صح في سبب النزول وبين السياق؟!!

اشتياق الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى لقاء جبريل، عليه الـسلام، وطلبه أن يكثر من النزول إليه ناسب أن تنـزل هـذه الآيـة لتكـون الإجابة عن طلبه، عليه السلام، وإن كانت لا تخص نـزول جبريـل، عليه السلام، فقط. فهي كلام الله تعالى على لـسان جبريـل، عليـه السلام، وغيره ممن يؤذن لهم في النزول؛ كالملائكة وكعيسى، عليـه السلام، وغيره ممن يحتمل أن ينزلوا بعد رفع. ومـن هنـا نجـد أنّ المتكلم جماعة:" وما **نتنزّل... أيدينا... خلفنا...**". أما المخاطب هنـا

فهو الرسول، صلى الله عليه وسلم:" بأمر **ربك**... وما كان **ربك**..". نعم فالنزول لا يكون إلا وفق الأمر الرباني ولحكمة يريدها الله تعالى، فكل شيء في هذا الكون منضبط ولا يكون إلا لحكمة يريدها الرب المربي لخلقِهِ بالرسالات وغيرها. وكون المخاطب هنا هو الرسول، عليه السلام، ففيه تأكيد بأنّ كل ما يكون من تنزلات هو في سياق الرسالة الخاتمة؛ فكل ذلك يتم بأمر ربك يا محمد، وما كان ربك يا محمد نسياً.

فالسياق يجعلنا أكثر ميلاً إلى القول بأنّ المتكلم في الآية ٦٤ هو المسيح، عليه السلام، لأنّ نزول جبريل، عليه السلام، بقولٍ وإعلانٍ للمسيح يصلح أن يكون إجابة عن سؤال الرسول، صلى الله عليه وسلم، كيف لا، وهو قاعدة لا تتخلف لا في المسيح ولا في غيره ممن يمكن أن يتنزل.

فللمسيح إذن ثلاثة إعلانات: واحد وهو طفل في المهد، وآخر وهو رسول يدعو قومه، وثالث وهو في السماء مرفوع. وبذلك يتضح أنّ الإعلان الأول والثاني والثالث جاءت في سياق واحد. وأنّ العطف في الثاني والثالث كان على الأول. أما مضمون هذه الإعلانات فيحتاج إلى توقف وتدبّر.

سليمان وأيوب، عليهما السلام

أيـوب عليه السلام نبي صابر، ضُرب بصبره المثل حتى قيـل:" يـا صبر أيوب". وقصته الشائعة بين الناس أخذت من سفر أيوب، وهـو السفر ١٨ من أسفار العهد القديم، ولكنّه من الأسفار المختلف فيها بين فرق النصارى. ومن يقرأ هذا السفر يخرج بنتيجة أن أيوب هو رجل صالح كان غنياً جداً ثم ابتلي بجسمه وماله وعياله. وبعض هذا يستفاد من الآيات الكريمة التى تعرضت لقصة أيوب بإيجـاز شـديد. إلا أنّ صورة أيوب، عليه السلام، في القرآن الكـريم هـي صـورة النبـي الصابر الذي يلجأ ويجأر إلى الله تعالى.

ورد اسم أيوب في القرآن الكريم أربع مرات في أربع سور؛ مـرتين يذكر الاسم مع غيره من الأنبياء، ومرتين تذكر قصته مع اختلاف في الطول وبعض التفاصيل، إلا أنها تبقى شديدة الاختـصار، كمـا هـو الأمر في أكثر القصص القرآني. واللافت أنّ القصة في سورة **الأنبياء** وسورة **ص** قد جاءت مباشرة بعد قصة سليمان. أما ورود الاسم فـي الآية ٨٤ من سورة الأنعام فقد جاء في هذا السياق:" ... **ومن ذريتـه داود وسليمان وأيوب** ..."، وكما تلاحظ جاء ذكر أيـوب بعـد ذكـر سليمان، عليهما السلام. أما المرة الرابعة والأخيرة، التي ذكـر فيهـا أيوب في القرآن الكريم، ففي الآية ١٦٣ من سورة النساء، حيث ورد فيها أسماء أحد عشر نبياً، منهم سليمان وأيوب. ومن اللافت أخيراً أنّ

وصف **أواب** لم يوصف به من الأنبياء في القرآن الكريم إلا داود وسليمان وأيوب، عليهم السلام، وذلك حصرياً في سورة ص، والأواب هو الرجّاع إلى الله تعالى في جميع أموره وشئونه طاعة له.

إنّ مثل هذا التلازم يوحي بوجود علاقة بين النبيين الكريمين، لا نظنها زمانية ولا مكانية ولا نَسبيّة... لأنّ القرآن الكريم يقصد إلى إبراز القضايا الإيمانية والاجتماعيّة والتربوية والتشريعية والأخلاقية... بعيداً عن الزمان والمكان والنَّسب. وبما أنّ قصة أيوب تتمحور حول **قيمة الصبر** فمن المتوقع أن يشير هذا التلازم إلى تجلّي هذه القيمة في سلوك، سليمان عليه السلام. وإذا كان الصبر مطلوباً ممن يبتلى بفقر أو مرض أو مصيبة..، فإنّ الصبر ممن يمتحن بالغنى والصحة والجاه والسلطان مطلوب أكثر. ومعلوم أنّ سليمان، عليه السلام، قد وُهب من السلطان ما جعله مضرب المثل في التاريخ البشري؛ فقد سخرت له الريح، وسخرت له مردة الجن، وسخرت له الجيوش التي لا قبل لأحد بها... بل لقد أطلقت يده في العطاء والمنع، انظر الآية ٣٩ من سورة ص:" **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**".

ويبدو أنّ مثل هذا التمكين لسليمان، عليه السلام، قد كان بعد امتحان مناقض لامتحان القوة والسلطان، ألا وهو امتحان الصبر على العجز وسلب القدرة، انظر الآية ٣٤ من سورة ص:" **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب**"، إذا كانت الإنابة فيها معنى الرجوع، وإذا كان الرجوع هنا هو رجوع سليمان، عليه السلام – أي

رجوعه إلى الصحة -، فإنّ احتمال أن يكون الجسد الملقى على كرسي الملك بلا حراك هو جسد سليمان، عليه السلام. وكان يمكن أن تكون الآية أوضح دلالة على هذا المعنى لو قيل:" وألقيناهُ على كرسيه..."، ولكن مثل هذا التعبير يتضمن معنى النبذ المنافي للتكريم. ويبدو أنّ صبر سليمان، على مثل هذا الابتلاء كان في أعلى المراتب إلى درجة أنّ نجاحه المتميز جعله يتمنى على ربه فيقول:" **قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب**". أما طلب المغفرة فهو ديدن المقربين الذين يستشعرون دائماً عظيم فضل المُنعم وقصور المكلفين عن حقيقة الشكر.

إذا كان الهدف من الفتنة هو استخراج وإظهار الخير المستكن في النفس البشرية- كما الأمر في فتنة الذهب عند تعريض خامه للنار بهدف استخراج الذهب الصافي- فإنّ فتنة سليمان، عليه السلام، قد أبرزت صبره في أعلى مراتبه، فأصبح مهيّأً للتمكين في الأرض وقيل له:" **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**". وعليه فإنّ من المتوقع أن يكون أصلح الناس عند التمكين هم أولئك الذين صبروا على المصائب وعركتهم الابتلاءات قبل أن يمكّنوا. أما أرقى صور الصبر والمصابرة فهي صور أولئك الذين نجحوا لدى النعمة ولدى النقمة. وأمثال هؤلاء تحتاجهم البشرية من أجل خلاصها.

لا ينبغي لأحد من بعدي

جاء في الآية ٣٥ من سورة **ص**:" **قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب**". قد يستشكل هذا الطلب عند البعض؛ فلماذا يطلب هذا النبي الكريم مُلكاً يُحرم الناس من مثله إلى يوم القيامة؟! والأليق بمقام النبوة أن يطلب الخير للناس في زمنه ومن بعده. من هنا نرى أنّ ما طلبه هو أمر يعلم سليمان أنّ الله تعالى قضى أن لا يكون بعد زمنه عليه السلام.

عندما يولد الطفل يكون أشد ما يكون حاجة إلى رعاية الأهل، وكلما كبر قلّت حاجته إلى الرعاية والمساعدة والتلقين، حتى يبلغ رشده فيعتمد على نفسه. والإنسان في بداية نشأته يشبه الطفل في حاجته للتعليم والرعاية والدعم والمساعدة. وتبدأ قصة الإنسان بخلق آدم وزوجه وتعليمه الأسماء، كما نص القرآن الكريم. وتاريخ البشرية يشير إلى تواتر الوحي لتعليم الإنسان والأخذ بيده لإرشاده وتصويب مسيرته إلى أن بلغ رشده فختمت النبوات، فقد أصبح الإنسان قادراً على الاستمرار في خلافته في الأرض بإرشاد وهداية الرسالة الخاتمة.

لم تكن المساعدة مقتصرة على التعاليم الدينية، بل تعدتها إلى الأمور الحياتية، نظراً لحاجة الإنسان إلى هذه الدفعات التي تعينه وتسرع نضجه وتعرفه بواقعه، لأنّ هدايته عن طريق العقل في أصل خلقه

أقوى من هدايته عن طريق الفطرة، على خلاف عالم الحيوان؛ فكيف يستطيع آدم، مثلاً أن يُميز بين الأسد والحصان، فيأخذ حذره من الأسد والنمر والأفعى.... ويأنس بالحصان والجمل..الخ. وإذا كان الأمر يحتاج إلى تجربة فإنّ الثمن عندها سيكون مكلفاً في بداية عمر هذا الخليفة المكرم. وكيف لآدم وحواء، عليهما السلام، أن يعلما ضرورة ربط الحبل السري بعد قطعه وحاجة طفلهما الأول لألوان الرعاية والعناية...فإذا كان ذلك يتم من خلال التجربة والخطأ فإن ذلك سيكون مكلفاً جداً.

عندما قتل أحد ابني آدم أخاه لم يدرك الحاجة إلى دفنه فما الذي حصل؟! انظر الآية ٣١ من سورة المائدة:" **فبعث الله غُراباً يبحثُ في الأرض لِيُرِيَهُ كيف يواري سَوْءَةَ أخيه...**". ومثل ذلك مساعدة نوح، عليه السلام في بناء السفينة، انظر ما جاء في الآية ٢٧ من سورة المؤمنين:" **فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا...**". وكذلك تعليم داود، عليه السلام، انظر الآية ٨٠ من سورة الأنبياء:" **وعلمناهُ صنعةَ لَبُوسٍ لكم لِتُحصِنِكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون**". وانظر قوله تعالى في الآيات (١٠- ١٢) من سورة سبأ:" **ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد، أن اعمل سابغاتٍ وقدِّر في السرد واعملوا صالحاً إنّي بما تعملونَ بصير، ولسليمانَ الريحَ غُدوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ وأسلنا له عَينَ القِطر ومن الجن من يعملُ بين يديه بإذن ربه...**" وواضح في الآيات الكريمة أنّ الجن قد سخّرت أيضاً لمساعدة هذا المخلوق المكرم. بل إنّ الملائكة أيضاً

كانت تقوم برعاية الإنسان ومساعدته؛ فقد رجح عندنا أنّ الملائكة هي التي ساعدت في بناء الكعبة، ومعلوم في الصحيح أنّ جبريل، عليه السلام، جاء في صورة رجل يُعلّم المسلمين أمور دينهم....

يَعْلم سليمان، عليه السلام، أنّ هناك أموراً ستُرفع ولن تكون في الأجيال القادمة، لأنّ الإنسان قارب أن يبلغ رشده فيستقل بأموره الحياتية، فدعا الله تعالى أن يهبه من الملك الذي لا ينبغي أي يبقى في الناس من بعده، فاستجاب له سبحانه وتعالى وسخر له الريح تجري بأمره، وسخر له شياطين الجن يعملون بين يديه وسُلط عليهم إلى درجة وضعهم في الأصفاد. وهذا يعني أنّ شياطين الجن لا تسخر لأحد من الناس بعد سليمان، عليه السلام، لأنّ تسخيرها كان من أجل الإنسان في مرحلةٍ من مراحل تطور الوعي البشري. وعلى الرغم من وضوح النص في الدلالة على عدم قدرة البشر على تسخير الشياطين بعد سليمان، فليس هناك ما يمنع من احتمال أن تكون الجن قد سخرت أيضاً قبل عهده عليه السلام.

وخلاصة الأمر أنّ سليمان، عليه السلام، لم يطلب لنفسه مُلكاً يُحرم منه البشر من بعده، وإنما طلب بعضاً من الملك الذي كان عطاءً مؤقتاً من أجل دفع الإنسان وترقيته قبل أي يُترك ليمضي بقدراته. وهو عليه السلام يطلب ذلك لينفع الناس، كيف لا، وهو الذي تخطى مرتبة حب الخير ليكون في مرتبة من يحب حب الخير:".. **إنّي أحببت حب الخير..**". ص:٣٢

وتماثيل

جاء في الآية ١٣ من سورة سبأ:" **يعملونَ لهُ ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسياتٍ، اعملوا آل داودَ شكراً وقليل من عبادي الشكور**".

المقصود بالآية الكريمة سليمان، عليه السلام. ولسنا هنا بصدد تفسير الآية، ولكن نقصد أن نتوقف عند لفظة **تماثيل**، لأنها اللفظة التي يَستشكلها من يقرأ الآية الكريمة، لما وقر في عقل وقلب كل مسلم من استنكارٍ للتماثيل. في المقابل نجد هناك من يستدل بالآية الكريمة على جواز اتخاذ التماثيل. ولسنا هنا بصدد بيان حكم التماثيل في الشريعة الإسلامية، ولكنا بصدد توضيح معنى التماثيل، وإزالة اللبس في الفهم، وتبيين الخطأ في الاستدلال الناتج عن الخلل في المنهج.

جاء في التفسير الكبير للطبراني:" أي تماثيل كلّ شيء، يعني صوراً من نحاس وزجاج ورخام، كانت الجن تعملها، وكانوا يُصوّرون الأنبياء والملائكة في المسجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة. وهذا يدل على أنّ التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان ثم صار حراماً في شريعة نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم". وقد اخترنا هذا النص للطبراني، رحمه الله، لأنه يمثل أقوال الكثير من أهل التفسير. وهو من أعجب العجب!!

ولنا على هذا النص الملاحظات الآتية:

أولاً: من أين لهم هذا، وهل من سندٍ صحيح عن المعصوم، صلى الله عليه وسلم؟!

ثانياً: يُصوّرُ الأنبياء والملائكة، في المساجد، ليزداد الناس عبادة؟! هذا منطق عجيب. ما هذه العبادة، وما هذه المساجد، وما هذا التوحيد؟!!

ثالثاً: لماذا تكون مباحة قبل الإسلام، وهي أمور تتعلق بالاعتقاد بالدرجة الأولى؟! ثم إنّ عبادة الأوثان والأصنام كانت سائدة قبل وبعد عهد سليمان، عليه السلام. وما أظن أنّ أمة سليمان، عليه السلام، كانت محصنة ضد الوثنية أكثر من خير أمةٍ أخرجت للناس. وإذا كانت صور الأنبياء والملائكة تجعلهم يزدادون في العبادة، فإنّ ذلك يعنى أنهم أقرب إلى الوثنية، مما يقتضي منع ذلك درءاً للمفسدة.

جاء في تفسير القاسمي:" وتماثيل: أي صور ونقوش منوّعة على الجُدر والسقوف والأعمدة، جَمعُ تمثال: وهو كل ما صُوّر على مثال غيره من حيوان وغير حيوان". وهذا قول جيد، لأنه يبين لنا أنّ التمثال يكون صورة مماثلة لحيوان أو غير حيوان. وهناك من المفسرين من يوهم قولُه أنّ التمثال هو فقط ما يماثل صورة الحيوان. ولم ينفرد القاسمي بهذا القول؛ يقول أبو حيّان، صاحب البحر المحيط، وهو إمام من أئمة اللغة العربية:" التمثال: الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى، مثّلت الشيء بالشيء إذا شبهته به". وقال عند تفسير الأية الكريمة:" التماثيل: الصور وكانت لغير الحيوان". ويبدو أنه أخذ هذا عن تفسير ابن عطية، والذي هو أيضاً

من أئمة اللغة العربية. وعنهما أخذ العلامة الألوسي حرفياً. وقال الطاهر بن عاشور، وهو يفسر كلمة التماثيل الواردة في سورة الأنبياء:" وكان قوم إبراهيم يعبدون الكواكب ويجعلون لها صوراً مجسّمة"، وهذا صريح بأنّ التماثيل قد تكون مثال الجمادات. وقد صرّح السعدي، في تفسيره، بذلك فقال:" تماثيل: أي صور الحيوانات والجمادات".

فالتماثيل إذن هي ما يُصنع على مثال شيء من الأشياء. وقد يكون هذا الشيء حيّاً وقد يكون غير حي. ومعلوم أنّ الصورة تكون أيضاً مثالاً للشيء، ومن هنا عرّف بعضهم التماثيل بأنها الصور. والصحيح أنها الصُّوَر المُجَسّمة، لأنها أقرب إلى حقيقة الشيء الممثل له من الصورة غير المجَسّمة.

إذا عرفنا هذا اتضح أنّ الجن كانت تصنع لسليمان، عليه السلام، ما يشاء من أمثال الأشياء التي يريدها للزينة أو غير الزينة. وقد تكون أشياء في عالم الصناعة تماثل أشياء في الطبيعة. المهم أنهم كانوا يقلدون الأشياء كما يريد سليمان، عليه السلام. فلماذا انصرف ذهن الكثير من أهل التفسير إلى الأشياء المحرمة، ليجعلوها مباحة في عصره، عليه السلام، وما دليلهم على ذلك، حتى يقولوا إنّ ذلك كان مباحاً ثم نسخت الإباحة بالشريعة الإسلامية؟! الأمر أبسط من ذلك: فالجن تعمل وفق مشيئة نبي كريم لا يأمر إلا بعمل ما فيه شكر لنعم الله تعالى. ألم يقرأوا قوله تعالى في الآية الكريمة:" **اعملوا آل داود**

شكراً وقليلٌ من عباديَ الشكور"، فهو عليه السلام من القليل الذي يشكر، فيضع النعمة في موضعها.

لعل ما أوقع بعضهم في الوهم ظنهم أنّ التماثيل لا تكون إلا لكائناتٍ حيّة. وليتهم إذ ظنوا ذلك جعلوها تماثيل في القصور والشوارع ولم يدخلوها المساجد. ويجدر بنا قبل أن نختم أن نبين أنّ اتخاذ صور وتماثيل الجمادات هي أيضاً محرمة إذا قصد بها أمور محرمة.

إنما نحن فتنة

الدارس للتاريخ يلاحظ أنّ فترة حكم سليمان، عليه السلام، تتسم بالغموض إلى درجة أنّ الأبحاث الأثريّة، حتى الآن، لم تشف غليل الباحثين عن الحقيقة. ويلفت انتباه المتدبر للقرآن الكريم أنّ ألوان الخوارق تُميّز عهد هذا النبي الكريم، بل إنّ ما وهب له من ملك لا ينبغي لأحد من بعده. وعندما يُذكر سليمان، عليه السلام، تثور في الأذهان التصورات والخيالات المتعلقة بعالم الفخامة والجلال، والسيطرة والجمال، والغموض الساحر. وعندما نعلم أنّ سليمان، عليه السلام، قد أقام مملكة الحق والعدل بعيداً عن عنصريّة كفرة اليهود، وخلافاً لرغباتهم وأطماعهم، ندرك السر من وراء الصورة غير الإيجابيّة التي يعطيها العهد القديم عن سليمان، عليه السلام. فهو بزعمهم ملك ظالم، عبد الأوثان إرضاءً لزوجاته الوثنيات، وكان ساحراً، ومات كافراً.

جاء في الآية ١٠٢ من سورة البقرة:" **واتَبعوا ما تتلوا الشياطينُ على ملكِ سليمان، وما كفر سليمانُ ولكن الشياطينَ كفروا يُعلّمونَ الناس السحرَ...**":

"**واتبعوا ما تتلوا**": فبدل أن يتبعوا ما جاء به الرسول، عليه السلام، من الحق والحقيقة، وجدنا بعضهم يتبع ما تناقلته القوى الشيطانيّة، وهي لا تزال تتناقله بدلالة استخدام الفعل المضارع تتلو.

تتلو: فالمشافهة هي الوسيلة الأساسية في تناقل مثل هذه المزاعم.

تتلو الشياطين:

معلوم أنّ الشياطين تكون من الإنس ومن الجن، بدليل ما جاء في الآية ١١٢ من سورة الأنعام:" **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن**"، وبدلالة قوله تعالى:" **من الجِنّة والناس**". ونحن نواجه أمثال هؤلاء كل يوم؛ فنجد الشيطان منهم يحمل لواء الإلحاد ويبذل قصارى جهده في معاداة الدين وأهله، ونجد الواحد منهم يمتلئ غيظاً وحقداً على أهل الإيمان. ويُفاجأ الإنسان بوجود أمثال هؤلاء، ممن يهيمون بالمعصية والفجور وينفرون من الطهارة والقنوت. إنهم حقيقة من حقائق الحياة، وأمثال هؤلاء تتعلق قلوبهم بكل انحراف وتلهج ألسنتهم بكل هجر.

"ما تتلوا الشياطينُ على ملكِ سليمان":

واستخدام **على** يشير إلى أنّ ما يُتلى ويُقال هو من قبيل الكذب والافتراء على سليمان، عليه السلام، وعلى عهده المبارك.

"وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا":

فما نسب إلى عهد سليمان، عليه السلام، من افتراءات هو من قبيل الكفر، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بممارسة السحر.

"يُعلّمون الناس السحرَ وما أنزل على المَلَكين":

يفيد ظاهر النص بأنّ الشياطين – ورجح بعض علماء التفسير أنها هنا شياطين الإنس – كانوا يُعلِّمون الناس أمرين: الأول هو السحر، والثاني هو ما أُنزل على المَلَكين. وهذا يعني أنّ **ما أنزل على المَلكين ليس بسحر**، ولكن له علاقة بالسحر، فما هو؟

الدارس للتاريخ القديم يلاحظ أنّ بعض المجتمعات البشرية قد بلغت مبلغاً عظيماً في بعض العلوم والمعارف. ولا يزال الكثير من أسرار هذه العلوم مجهولاً، كما هو الأمر في بناء الأهرامات في مصر الفرعونيّة، وكما هو الأمر في أسرار التحنيط عند الفراعنة. ويبدو أنّ الثورة الصناعية التي كانت المقدمة للعلوم الماديّة المعاصرة جعلت البشرية تسير في مسار يختلف عن مسار العلوم قبل الثورة الصناعية. ويبدو أيضاً أنّ التطور التكنولوجي في القرون المتأخرة قد أضعف ما تحصّل لدى الإنسان من مسارات معرفيّة تستند إلى قوى ماديّة غير محسوسة. ومن هذه العلوم السحر، الذي بقيت منه آثار يتعامل بها من لا خلاق لهم من أهل الزيغ والانحراف.

ومعلوم أنّ مدينة بابل تُعتبر من أقدم المدن التاريخيّة التي ظهرت فيها حضارة عظيمة برع أهلها في مجالات شتى، ولا تزال مُعلّقات بابل تُذكر كعجيبة من عجائب الدنيا السبع.

"وما أنزل على الملَكين ببابل":

يبدو أنّ بابل قد بلغت مبلغاً عظيماً في علوم السحر، وهذا مؤشر على انحراف مسار الحضارة البابليّة. وقد تجلّت رحمة الله تعالى بإنزال مَلَكين لمواجهة ذلك الشر المستطير. ويُفترض أن يتمثل الملكان في صورة بشريّة، وذلك لقوله تعالى في الآية ٩ من سورة الأنعام:" **ولو جعلناهُ مَلَكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون**". وقد صحّ في السُنّة أنّ جبريل، عليه السلام، كان يأتي أحياناً في

صورة دحية الكلبي. ومعلوم أنّ هذا من الأمور الغيبية التي تُعلم بالنص، وقد صرّحت النصوص بذلك.

وإنْ تعجب فعجب ما قام به بعض أهل التفسير من صرف هذا النص الصريح عن ظاهره، وما ذلك إلا لأنّهم لم يألفوا في حياتهم تَمثُّل الملائكة في صورة إنسيّة. وهنا يجدر أن نلفت الانتباه إلى أنّ البشرية في فجرها هي كالطفل عند مولده؛ فهو يتلقى منا الرعاية الشديدة، وكلما كبر واشتد عوده تضاءلت حاجته لمساعدة الغير حتى يبلغ رشده. فنصوص القرآن والسُنّة تشير إلى أنّ الإنسان قديماً كان يتلقى المساعدة تسريعاً لنضوجه ودفعاً لتطوره. ومن أبرز صور هذا الدفع والتسريع الأنبياء والرسل. فلما بلغ الإنسان رُشده خُتمت النبوّات والرسالات. ولا تزال رسالة الإسلام تُصوِّب المسيرة وتُسرّع النضوج.

"وما أنزل على الملكين":

واضح من النص الكريم أنّ مهمة المَلكين تتمثل في تعليم الناس أموراً تتعلق بالسحر الذي استفحل شرّهُ في بابل. وبما أنهما ملَكان، وبما أنّ ما يُعلّمانه مُنزّل عليهما، فلا بد إذن أن يكون أمراً إيجابياً. والأقرب في المنطق السوي أن يكون هذا العلم يتعلق بمضادات السحر من أجل إبطاله. وبذلك لا نحتاج إلى لَيِّ أعناق النصوص، لأنّ هذا هو ظاهر النص واللائق بمقام الملائكة وما يُنزّل عليهم.

لماذا ملَكان؟

كان يمكن أن يُنزّل هذا العلم، المتعلق بإبطال السحر، على نبي من الأنبياء، فلماذا أنزل على ملَكين متجسّدين في الصورة البشرية ؟

الجواب على ذلك يتلخص في كون الأمر لا يناسب مقام النبوّة والرسالة، لأنّ المخالفين قد درجوا على اتهام الأنبياء والرسل بممارسة السحر، بل لقد خلط أهل الكفر بين المعجزة والسحر. من هنا، وحتى لا تكون الشبهة وحتى لا يتم الخلط، تمّ تجنيب الرسل الخوض في مضادات السحر التي تُحتِّم الخوض في السحر.

"وما يُعلِّمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر":

واضح من النص الكريم أنّ المَلكين يُخْلِصان النصيحة لكل من تعلم مُضادات السحر، ويظهر ذلك جلياً في استخدام (**ما، ومن**) في قوله تعالى: " **وما يُعلِّمان من أحد**". وهذا الحرص منهما يدل على خطورة الأمر وحساسيته. وتظهر هذه الخطورة في إمكانية انحراف المتعلم وانخراطه في أمور السحر، لذا كانت النصيحة المشدّدة:" **إنما نحن فتنة فلا تكفر** ".

فمن أين تأتي الخطورة وإمكانية الانحراف؟!

من المتصوّر تماماً أنّ تعليم المضادات للسحر يقتضي التعريف بحقيقة السحر أولاً، ثم تعليم أنواع المضادات لهذا السحر. ومن هنا يصبح المتعلم مُلِماً بأساليب السحر وأنواعه، كما هو الأمر في الصيدلي الذي يلم بأنواع السموم ومضاداتها.

من هنا لا بُدّ من التذكير الدائم والوصيّة المتكررة، لأنّ المتعلم أصبح قادراً على ممارسة السحر بعد تعلّمه لمضادّاته، ومثل هذه الإمكانيات تغري النفوس غير السويّة بالانحراف.

"إنّما نحن فتنة فلا تكفر":

جاء في الآية ٣٥ من سورة الأنبياء:"... **ونبلوكم بالشر والخير فتنة**"، وجاء في الآية ١٥ من سورة التغابن:" **إنّما أولادكم وأموالكم فتنة...**"، وعليه فتعليم مضادّات السحر من قِبَل الملَكين يجعل المتعلم في حالة من المسئولية، فقد أصبح لديه القدرة على ممارسة شر السحر ونقيضه، فينبغي له أن يختار الخير ولا ينحرف إلى الشر المفضي هنا إلى الكفر بممارسة السحر.

واللافت في هذا المقام أنّ مثل هذه الوصية المشدّدة يحتاج إليها الناس عندما يكون الأمر على درجة من الخطورة والأهمية، كما هو الشأن في القَسَم الذي يُقسمه الطبيب والصيدلي عند التخرج.

"فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ":

وبعد أن تؤدّى النصيحة ويتم التحذير المشدد يتم تعليم ألوان من السحر، وعلى وجه الخصوص الكيفية التي يتم فيها التفريق بين المرء وزوجه. ولا شك أنّ ذلك من أشر الشرور، فقد صحّ في الحديث الشريف أنّ إبليس يُقرِّبُ من اتباعه من يستطيع أن يُوسوس للزوجين بما يُفضي إلى طلاقهما. ويبدو أنّ التفريق بين الأزواج هو من أهم مقاصد السحر والسحرة، فحيث تكون المودة والرحمة والسكينة يكون الخير، وما السحر إلا محض شر.

"وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ":

وهذه حقيقة ينبغي أن تكون ماثلة دائماً في ضمير المؤمن، فلا يكون في هذا الكون شيء إلا بإذنه تعالى. فليكن التوجه أولاً وأخيراً إلى الله تعالى.

" ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم":

وهذا يدل على أنّ السحر لا علاقة له بالنفع، بل كُله يتعلق بالمضرّة ويخلو من المنفعة. من هنا كانت ممارسة السحر من أكبر الكبائر، وقد يصل حكمها إلى الكفر. ولو كان في السحر بعض الجوانب النافعة لأمكن عقلاً أن يأذن الشرع بممارسة هذه الجوانب. أمّا تعلّم مضادات السحر فلا تتعلق بالمنفعة وإنما بدفع المضرّة. من هنا كانت وصية المَلكين مشدّدة، لكي لا ينزلق المتعلم في متاهات السحر، ولكي يُسخّر علمه في دفع الضرر.

وقد يتوهم البعض أنّ المقصود بقوله تعالى:" **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم**": أنهم كانوا يتعلّمون ما يضر فقط، وهذا الفهم بعيد لأمور:

أولاً: لم يثبت أنّ للسحر جوانب نافعة.

ثانياً: لا يُعقل أن يتعلموا ما يضرهم فقط ويتركوا علم ما ينفعهم، لأنّ لدى الإنسان الميل إلى جلب المنفعة لنفسه أشد من ميله إلى إلحاق الضرر بغيره.

ثالثاً: جاء في النص الكريم: "**يضرّهم**"، وليس: "**يضر غيرهم**"، والإنسان لا يتعلم كيف يضر نفسه ويهمل ما ينفعها.

ولتقريب المعنى نضرب المثال الآتي:

إذا تعلّم الصيدلي عن السموم وتأثيراتها السلبية على الإنسان فإنه يكون قد تعلم ما يضر من السموم ولا ينفع. أما إذا تعلم أيضاً منافع السموم، فيكون عندها قد حاز علم ما ينفعه وما يضره من السموم. وعليه فإنّ **السحر علم كله ضرر وليس فيه منفعة.**

وهنا يجدر لفت الانتباه إلى أنّ العلماء قد اختلفوا في ماهية السحر وتأثيره؛ فذهب الجمهور إلى القول بأنّ للسحر حقيقةً وتأثيراً مستدلين بالحديث الصحيح الذي أشار إلى ما حصل من سحر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من قِبَل رجل يهودي. في المقابل هناك من العلماء من ينفي أن يكون للسحر تأثير يتعدى كونه تمويهاً واحتيالاً.

يرجع الاختلاف في حقيقة السحر إلى كونه علماً مجهولاً لدى الغالبية من الناس، ويبدو أنّه ينتمي أكثر إلى العصور القديمة. ولأنّ الحاجة هي أم الاختراع فيتوقّع أن يكون لتطور العلم والتكنولوجيا تأثير كبير على تراجع دور السحر والسحرة، نظراً لما يلبيه التطور التكنولوجي من حاجات. ولا نستطيع أن نجزم بمدى تراجع هذا العلم الشيطاني، لأننا لا نزال نسمع بممارسته، وعلى وجه الخصوص في العالم الغربي. وهنا لا بد من التنبيه إلى أنّ الناس في مجتمعاتنا العربية باتت تبالغ في مزاعم حصول السحر، ويرجع ذلك فيما **يرجع إلى الجهل بحقيقة الكثير من الأمراض النفسيّة.** والتجربة تؤكد أنّ الغالبية العظمى من حالات السحر المزعومة هي في الحقيقة حالات نفسية.

ليس هناك من دليل نصّي على أنّ للسحر تأثيراً في عالم الأشياء. ويبدو أنّ تأثير السحر ينحصر في عالم النفوس، وهذا ما تشير إليه

نصوص القرآن والسُنّة. فقد جاء في الآية ١١٦ من سورة **الأعراف**: "... **فلما ألقوا سَحَروا أعيُنَ الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم**"؛ لقد انحصر أثر السحر في أبصار الجمهور ومداركهم بحيث تخيّلوا جميعاً أنها تسعى. ومما يؤكد ذلك ما جاء في الآية ٦٦ من سورة **طه**: " **فإذا حبالهم وعِصيُّهم يُخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى**"، فقد حصل التخيّل المنافي للواقع كنتيجة لممارسة السحر.

من المس

جاء في الآية ٢٧٥ من سورة البقرة:" **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ".

لسنا هنا في مقام تفسير الآية الكريمة، ولسنا في مقام مناقشة القول بأنّ الشيطان من مسببات الجنون، ولكننا في مقام التأكيد على أنّ الآية الكريمة لا تصلح دليلاً لمن يقول بأنّ المس (الجنون) ناتج عن فعل الشيطان. وقد دعانا إلى هذا ما رأيناه من مساجلات بين القائلين بانحصار تأثير الشيطان في الوسوسة- مستندين في ذلك إلى ما ورد في الآية ٢٢ من سورة إبراهيم: وقال الشيطان... وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي.. - والقائلين بأنّ له تأثيراً يتعدى الوسوسة، مستندين إلى هذه الآية وأدلة أخرى.

عندما تقول: "مات فلانٌ من العطش"، فإنك تقصد أن تقول إنّ العطش كان مسبباً للموت، أي أنّ العطش مقدمة والموت نتيجة، وهذا كما ترى في غاية الوضوح. فإذا أعدنا النظر في فهم الآية الكريمة على ضوء هذا الكلام، يتضح لنا أنّ **المس مقدمة والتخبط نتيجة**، انظر قوله تعالى:"**يتخبطه الشيطان من المس**"، أي يتخبطه الشيطان بسبب ما به من مس.

فالتخبط إذن مسبوق بالمس. من هنا لا يكون الشيطان فاعلاً للمس ولكن فاعلاً للتخبط، والذي هو سير على غير هدى ومن غير اتزان.

وعندما تضعف الضوابط العقلية يسهل على القوى الشيطانية أن تتخبط الإنسان وتجعله يسير على غير هدى، سواء كانت هذه القوى الشريرة من الجِنّة أو من الناس. وكلما قوي العقل وانتشر العلم والوعي الحقيقيان تزداد المناعة ضد تلاعب القوى الشريرة في الفرد أو الجماعة أو المجتمع. وإذا كانت التقوى ضمانة وحصانة من التخبط فإنّ الوعي والعلم وسلامة العقل ضمانة أخرى، بل إنّ التقي الجاهل عُرضة لتلاعب أهل الشر به من جهة جهله لا من جهة تقواه.

مسألة حول الطوفان

وردت قصة الطوفان في أساطير العديد من الأمم. وهذا أمر متوقع، لأنّه ليس من السهل أن تنسى البشرية مثل هذا الحدث الجلل. وفي المقابل من غير المتصوّر أن تمر القرون دون أن يزاد على القصة أو يُنقص منها. وبذلك تتشكل الأساطير وتتباين أحداث القصة وتختلف باختلاف الأمم مع بقاء قاسم مشترك يشير إلى حقيقة الحدث. وقد جاءت الآيات القرآنية الكريمة لتعيد الأمور إلى نصابها فتضعنا في الصورة الحقيقية للحدث.

ونظراً لتأثر بعض أهل التفسير بما ورد في التوراة من تفصيل حول قصة الطوفان، ونظراً لرسوخ بعض التصورات – غير القائمة على دليل تطمئن له النفس – في أذهان الغالبية من المسلمين، فقد رأينا أن ننبه إلى بعض المسائل ذات الصلة بحادثة الطوفان. وهي وإن كانت مختصرة ولكنها قد تثير في ذهن القارئ تساؤلات تساعده في إعادة النظر في بعض تصوراته التي لا تقوم على أساس من دليل ظاهر:

أولاً: القول بأنّ الطوفان قد عم الكرة الأرضيّة لا دليل عليه من قرآن أو سنة في حدود ما نعلم. أما التوراة التي كُتبت بعد موسى، عليه السلام، بقرون فتنص على ذلك. وقد تأثر عدد من أهل التفسير بما جاء في هذه التوراة.

ثانياً: إذا علم ذلك يمكن أن يُرجّح العقل بين الاحتمالات فنقول:

أ. معلوم أنّ نوحاً، عليه السلام، هو أول رسول أرسل إلى البشر، كما ورد في الصحيح. وهذا يعني أنّ البشرية لم تكن قد سكنت كامل الأرض، فلماذا يعم الطوفان الأرض كل الأرض؟!

ب. جاء في الآية ٤٠ من سورة هود: "...**قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك... ومن آمن وما آمن معه إلا قليل**"، وجاء في الآية ٢٧ من سورة المؤمنون: " ...**فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك...**"، فالله سبحانه يطلب من نوح، عليه السلام، أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين، وهذا يُشعر بأنّ الطوفان سيعم الأرض ويهلك الكائنات. ويُجاب عن هذا بأنّ قراءة حفص للآيتين تُنوّن لفظة (كلٍّ). والتنوين هنا عوض عن مضاف إليه محذوف؛ **أي احمل فيها من كلّ ما أمرتك أن تحمله زوجين اثنين. وهذا يشير إلى أنّ هناك أمراً سابقاً يحدد الأنواع التي ستُحمل في السفينة من أجل أن يكون، عليه السلام، على استعداد في انتظار الاشارة لحمل هذه الأنواع.** ومن المتوقع أن يكون مثل هذا الأمر للمحافظة على الأنواع التي تختص بها المنطقة التي ستغرق بماء الطوفان. أما الأنواع التي توجد في بقاع أخرى من الأرض فلا ضرورة لحملها لعدم احتمال انقراضها بالطوفان. ومثل هذا الاحتمال، الذي يفهم من قراءة التنوين- التي تُحمل عليها القراءة الأخرى- هو الأقرب إلى منطق الأشياء، لأنّ

الأنواع الموجودة على اليابسة هي بالملايين، ولا يتصور إمكانية جمعها جميعاً.

ج. تشير ظواهر النصوص القرآنية إلى أنّ البشرية قد تناسلت من المؤمنين الذين حُمِلوا مع نوح، عليه السلام؛ انظر مثلاً الآية الثالثة من سورة الإسراء:" **ذرية من حملنا مع نوح...**"، وانظر الآية ٥٨ من سورة مريم:" **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح...**". وتشير الآية ٧٧ من سورة الصافات إلى أنّ من بقي بعد الطوفان هم ذرية نوح، عليه السلام:" **وجعلنا ذريته هم الباقين**". وهذا يعني أنّ القليل الذي آمن مع نوح، عليه السلام – بحسب الآية ٤٠ من سورة هود– قد تزاوجوا مع أولاد نوح، بحيث يكون من بقي من البشر هم من ذريته، عليه السلام، من جهة الذكور أو من جهة الإناث.

ولكن كل ذلك لا يدل بشكل جازم على أنّ نوحاً، عليه السلام، هو الأب الثاني للبشرية، وإن كان هو القول المرجّح وفق ظواهر النصوص. أما القول بغير هذا الظاهر فلا دليل عليه، ولكنه احتمال ضعيف.

ثالثاً: جاء في الآية ٣٧ من سورة الفرقان:" **وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم...**": هذه الآية نص في أنّ هناك أكثر من رسول كانوا مع نوح، عليه السلام. ولكنّ نوحاً كان أول من أرسل وبقي يدعو قومه حتى أهلكوا بالطوفان. وهذا مألوف في النص القرآني، كما هو الأمر

في إرسال هارون مع موسى، عليهما السلام، وكما ورد في سورة يس:

" **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث..**" يس: ١٤

لما كذبوا الرسل

جاء في الآية ٣٧ من سورة الفرقان:" **وقوم نوحٍ لما كذبوا الرسل أغرقناهم** ..."، وجاء في الآية ١٠٥ من سورة الشعراء:" **كذبت قوم نوح المرسلين** ...".

اللافت في الآيتين الكريمتين أنهما تصرحان بأنّ قوم نوح قد كذبوا أكثر من رسول، وليس **نوحاً** فقط. وهذا يعني أنّ الله تعالى قد أرسل مع نوح عدداً من الرسل إلى قوم نوح، كما هو الأمر عند إرسال موسى ثم هارون، عليهما السلام. وكما هو الأمر في قصة أصحاب القرية الواردة في سورة يس، انظر الآية ١٤:" **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون**". وبما أنّ نوحاً، عليه السلام، كان أول رسول أُرسل إلى البشر- كما نصت عليه الأحاديث الصحيحة- ، وبما أنه بقي حيا إلى أن أغرق قومه، وبما أنّ النص القرآني الكريم ينص على أنّ قوم نوح قد كذبوا الرسل، فإنّ ذلك كله يعني أنّ الله تعالى قد أرسل مع نوح عدداً من الرسل كان نوح عليه السلام أبرزهم وإمامهم. وهذا وجه واضح ومنطقي ولا يعارض نصاً من قرآن أو سُنّة، بل هو منسجم تماماً مع باقي النصوص القرآنية.

على الرغم من هذا فإننا نجد أنّ عامّة أهل التفسير يقولون بوجوه أخرى إلا هذا الوجه. وهذا أمر يدعو إلى العجب، ويدعونا إلى محاولة فهم لماذا يتواطأ أهل التفسير أحياناً على قول أو أكثر، على

الرغم من احتمال النص لوجوه أخرى هي أقرب إلى ظاهر النص القرآني الكريم.

يقول ابن كثير، رحمه الله:" ولم يُبعَث إليهم إلا نوح فقط". فلماذا يجزم رحمه الله بهذا القول على الرغم من أنّ النص الكريم يقول:" **لما كذبوا الرسل** ..."؟! ويقول الألوسي رحمه الله:" **أي** نوحاً ومن قبله من الرسل..."، وهذا عجيب، لأنّ حديث الشفاعة المتفق على صحته ينص على أنّ نوحاً، عليه السلام، هو أول رسول أرسل إلى البشر. بل إنّ المتدبر للقرآن الكريم يدرك ذلك من خلال ملاحظة أنّ القرآن الكريم يبدأ الحديث عن الأمم المكذبة بنوح وقومه؛ انظر قوله تعالى في الآية ١٧ من سورة الإسراء:" **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ..."، والآية ١٢ من سورة ق:" **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسل وثمود**"، والآية ١٦٣ من سورة النساء:" **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده** ..."، وآيات أخرى كثيرة تؤيد ما صحّت به الأحاديث التي نصت على أنّ نوحاً هو أول رسول يُرسَل إلى البشر.

وما قاله الألوسي قاله كثير من أهل التفسير، ومنهم أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط، والزمخشري في الكشاف، والشوكاني في فتح القدير... ولم يقتصر الألوسي على هذا القول بل أضاف:" أي نوحاً ومن قبله من الرسل عليهم السلام أونوحاً وحده فإنّ تكذيبه، عليه السلام، تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد ...". وهذا القول يقول به عامة أهل التفسير، وهو ضعيف، لما ثبت من أنّ نوحاً هو أول رسول

يُرسَل إلى البشر، والآية تنص:" **لما كذبوا الرسل** ..."، فلو كان قبله رسل لفُهِم الأمر أنهم كذبوه وكذبوا الرسل من قبلـــه. ولا يُتوقّـــع أن يكون تكذيبهم لنوح، عليه السلام، ولمن سيأتي بعده من الرسل.

ويُضيف الألوسي فيقول:" أو أنكروا جواز بعثة الرسل مطلقاً". وهـــو قول عدد من أهل التفسير أيضاً. والوجـــوه الـــثلاث التـــي عرضـــها الألوسي عليها مدار أقوال المفسرين. والعجيب أنهم، رحمهم الله، لـــم يقولوا بالوجه الرابع المتبادر من ظاهر النص، والـــذي ينـــسجم مـــع النصوص القرآنية، والمنطق السليم.

وطالما أنه لا ينبني على ذلك نتائج وأمور ذات بـــال علـــى مـــستوى الاعتقاد والسلوك، فلماذا نتعرض للموضوع بهذا التفصيل؟!

نـــقـــول:

أولاً: في ذلك لفت انتباه المتدبرين للألفاظ القرآنيّة وضرورة الانتبـــاه إلى دقة التعبير القرآني.

ثانياً: في إرسال أكثر من رسول كمال الإنذار والإعذار. وفيـــه دليـــل على عتو القوم وقسوة قلوبهم وعميق غفلتهم. وكذلك فإنّ تعدد الرسل متزامنين يتناسب مع واقع البشر في ذلك الزمـــان، حيـــث صـــعوبة الاتصال بين التجمعات البشريّة المتناثرة.

ثالثاً: في ذلك لفت للانتباه إلى ضرورة الالتزام بالمنهجيّة السليمة في التدليل والاستنباط عند تدبر النصوص القرآنيّة، وأهمية تفسير القرآن بالقرآن.

رابعاً: في استشكال المفسرين للفظة من الألفاظ القرآنية دليل على أنّهم قد فهموا ظاهر النص ثم استشكلوه وذلك لوجود أفكار مسبقة قد لا تكون صحيحة. فعندما يتدبّر المسلم القرآن الكريم محكوماً بأفكار مسبقة قد يؤدي به ذلك أحياناً إلى تناقض لا يوجد في النص الحكيم أصلاً.

خامساً: ما يتوهمه مُفسر واحد قد ينعكس على من يأخذ عنه. ومن هنا نجد أنّ الكثير من أهل التفسير يكررون أقوال بعضهم البعض ولو على سبيل الاستقصاء.

سادساً: هناك أسباب تجعل المفسر يذهل أحياناً عن المعنى الأقرب لظاهر النص. وهي أسباب قد تتعدد وتختلف من مفسر لآخر.

سابعاً: لا يكفي أن نقول إنّ هذا مما يحتمله النص، بل لا بد من الترجيح قدر الطاقة. ومعلوم أنّ الاحتمالات منها ما هو راجح، ومنها ما هو مرجوح، ومنها ما هو ضعيف... الخ.

إنكَ لَغَويٌّ مُبين

في هذه القصة القصيرة يُبرز القرآن الكريم الحدث الذي أدّى إلى خروج موسى، عليه السلام، من مصر وذهابه إلى مَدْيَن. ونُقدّم هنا تفسيراً سريعاً لألفاظ القصّة لعلنا نزيل اللبس الذي يقع فيه من يرجع إلى كتب التفسير. وسيجد القارئ الكريم أنّ اللبس جاء بالدرجة الأولى من عبارة:" بالذي هو عدوٌ لهما".

جاء في الآيات من ١٥ إلى ١٩ من سورة القصص:" **ودخل المدينةَ على حين غفلةٍ من أهلها فوجدَ فيها رجلينِ يقتتلانِ هذا من شيعتهِ وهذا من عدوّهِ، فاستغاثهُ الذي من شيعتهِ على الذي من عدوّهِ فوكزهُ موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطانِ إنهُ عدوٌ مضلٌّ مبينٌ. قال ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفرَ له، إنهُ هو الغفورُ الرحيم. قالَ ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمينَ. فأصبحَ في المدينةِ خائفاً يترقّبُ فإذا الذي استنصرهُ بالأمسِ يستصرِخُهُ، قال له موسى إنكَ لغويٌّ مبينٌ. فلما أنْ أرادَ أن يبطشَ بالذي هو عدوٌّ لهما قالَ يا موسى أتريدُ أن تقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس، إن تُريدُ إلا أن تكونَ جبّاراً في الأرض وما تريدُ أن تكونَ من المصلحينْ**".

ليس من مقصدنا هنا أن نفسّر هذه الآيات الكريمة، وإنما نهدف إلى محاولة إزالة اللبس الذي يجده من يرجع في فهم الآيات إلى بعض

كتب التفسير. وهي فرصة للتدرب على المنهجية في الفهم والاستنباط والتحاكم إلى النص الكريم.

" **ودخل المدينةَ على حين غفلةٍ من أهلها** ": والمقصود هنا موسى، عليه السلام، قبل النبوة، أيام وجوده في مصر. وقد كانت هذه الحادثة السبب الظاهر في مغادرته مصر متوجهاً إلى مَدين. ولا يهمنا هنا أن نعرف لماذا دخل المدينة وأين كان قبل دخولها، ولكن لفت انتباهنا أنّه دخل المدينة والناس في بيوتهم والطرقات خالية.

" **فوجدَ فيها رجلينِ يقتتلانِ هذا من شيعتهِ وهذا من عدوّهِ** ": وهذا يوحي أيضاً بأنّ الطرقات خالية لعدم شعورنا بوجود عنصر بشري آخر في الموقع. والرجل الأول هو من بني إسرائيل، والذين هم قوم موسى، عليه السلام. أما الرجل الثاني ففرعوني، لأنّ الفراعنة كانوا يعادون بني إسرائيل ويضطهدونهم.

" **فاستغاثهُ الذي من شيعتهِ على الذي من عدوّه** ": وهذه العبارة الكريمة توحي أيضاً بأنّ الطرقات خالية، فبمجرد ما لمح الإسرائيلي موسى، عليه السلام، استغاث به.

في مثل هذا الموقف لا يحتاج الأمر إلى تفكير ولا بد من السرعة في التدخل لصالح الإسرائيلي، لأنّ موسى، عليه السلام، يعرف الواقع تماماً ويدرك أنّ الفراعنة يضطهدون الإسرائيليين.

" **فوكزهُ موسى فقضى عليه**": فهو إذن قتل شبه عمد، لأنّه قصد الضرب ولم يقصد القتل. وكان الدافع شريفاً، حيث توجب الملابسات

على من كان في مثل شهامته، عليه السلام، أن يسارع إلى سرعة الرد على اعتداء من اعتادوا استضعاف الناس.

" **قال هذا من عمل الشيطانِ إنهُ عدوٌ مُضلٌ مبينٌ** ": كل شيء كان مفاجئاً وسريعاً، ولكن بعد انتهاء الحدث يكون التفكر بالنتائج التي ترتبت على سرعة الرد قبل التحقق من عدالة موقف الإسرائيلي. فما يدرينا فلعله هو المعتدي ابتداءً. ثم إنّ النتيجة أكبر من الحدث وموجباته. ولا يبعد أن يكون موسى، عليه السلام، قد عرف حقيقة الطرفين بُعيد الحادثة، وأدرك أنّ الإسرائيلي هو من أهل الانحراف والإجرام. والمهم أنه، عليه السلام، أدرك أنّ ما كان منه هو من تسويل الشيطان الذي يحرص على إضلال الإنسان.

" **قال ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفرَ له، إنهُ هو الغفورُ الرحيم** ": فموسى، عليه السلام – وهو لم يبعث رسولاً بعد – يُقرُّ بذنبه ويتوب منه، ويسأل الله تعالى أن يغفر له. ومن هنا لا داعي أن يستفيض الناس في بحث هذه المسألة، ليقولوا بعصمة أو عدم عصمة الأنبياء قبل البعثة. فالقتل كان شبه عمد، دوافعه كريمة ونتائجه مفاجئة غير مقصودة وضحّيته رجل من قوم كافرين وظالمين. ثم يقبل الله تعالى من عبده المنيب فيغفر له.

" **قالَ ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمينَ** ": السياق يلزمنا أن نقول إنّ النعمة هنا هي نعمة المغفرة. وهذا يعني أنّ موسى، عليه السلام، قد علم أنّ الله تعالى قد غفر له. ويكون ذلك إما بالوحي أو بنزول الملك ليخبره، أو غير ذلك من صور الإخبار. وهذا

مألوف؛ فقد أوحى الله لأمّه وهو رضيع أن تضعه في التابوت فتقذفه في الماء. وأوحى سبحانه قبل ذلك بقرون للفتى الصغير يوسف وهو في البئر، انظر الآية ١٥ من سورة يوسف:"... **وأوحينا إليه لتُنبّئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**". وأوحى سبحانه وتعالى بعد ذلك بقرون لمريم، عليها السلام، انظر الآية ٤٥ من سورة آل عمران:" **إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يُبشّرك...**"، بل وأرسل سبحانه إليها الملك على صورة رجل لينفخ فيها من روحه...الخ.

" **قالَ ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمينَ** ": توحي هذه العبارة الكريمة بأنّ موسى، عليه السلام، قد أدرك فيما بعد أنّ الإسرائيلي كان من أهل الإجرام، وأنّ نصرته لم تكن عادلة. وهذا يشير إلى أنه، عليه السلام، كان وقّافاً عند الحق ولا ينصر الباطل، ولو كان ذا قُربى.

" **فأصبحَ في المدينةِ خائفاً يترقّبُ فإذا الذي استنصرهُ بالأمسِ يستصرِخُهُ** ": واضح من تكرار الحدث أنّ الرجل الإسرائيلي من أصحاب المشاكل. وهو الآن لا يكتفي بالاستغاثه بل يملأ الدنيا صراخاً، وقد يوحي ذلك ببعد نسبي، ولكنه لما رأى موسى، عليه السلام، بادر إلى الصراخ طالباً النجدة. والعجيب أنه في كل مرة يستغيث، فليته إذ كان غير قادر اختصر فأراح الناس. وهذا النوع من الأشخاص له أمثال في كل مجتمع. وأمثال هؤلاء لا يحظون في الغالب بثقة الناس، ولا ينجدهم في الملمات أحد، وهم غالباً ما يُورّطون أهل الشهامة والنجدة.

" **قال له موسى إنكَ لغويٌّ مبينٌ** ": فغواية الإسرائيلي إذن واضحة جليّة، ولا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين، فكيف بموسى، عليه السلام؟! ولك بعد ذلك أن تعجب أشد العجب ممن يجعل موسى، عليه السلام، ناصراً لمثل هذا الغوي. وأين قوله:" فلن أكون ظهيراً للمجرمين"؟!!

" **فلمّا أن أرادَ أن يبطشَ بالذي هو عدوٌ لهما** ": تصوّر كثير من أهل التفسير أنّ الخصم في هذه الحادثة هو فرعوني أيضاً، وأنّ موسى، عليه السلام، أراد أن يبطش به. ولا ندري لماذا يريد موسى، عليه السلام، أن يبطش بالفرعوني الثاني بعد أن ندم على قتل الأول، وتاب إلى الله تعالى، وحكم على الإسرائيلي بأنّه غوي، وعاهد الله تعالى أنه لن يكون ظهيراً للمجرمين بعد الحادثة الأولى؟!! لماذا إذن لا يكون الخصم هذه المرة هو إسرائيلي، مما جعل حقيقة المستصرِخ تتجلى أمام ناظر موسى، عليه السلام، إضافة إلى ما يمكن أن يكون قد عَرَف عنه من أخبار بعد الحادثة الأولى.

واضح أنّ المفسرين استشكلوا قوله تعالى:" **أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌ لهما**". والأمر في نظرنا غير مشكل؛ لأنّ هناك فرقاً بين قولنا:" يبطش بالذي هو من عدوه" – كما جاء في قوله تعالى:" وهذا من عدوه" –، وبين قوله:" بالذي هو عدو لهما"؛ فالقول الأول يدل على أنّ الرجل ينتمي إلى الفراعنة المعادين للإسرائيليين. أما القول الثاني فيدل على أنّ الرجل هو العدو:" **هو عدو لهما**"، وليس قومه.. وهناك

فرق بين رجل من قوم معادين – وقد لا يكون هو معادياً – ورجل هو نفسه عدو.

فكيف يكون الإسرائيلي الغويّ عدواً لموسى، عليه السلام، وفي الوقت نفسه عدواً لخصمه، والذي كان على ما يبدو إسرائيلياً هذه المرّة؟!

الأمر جد بسيط؛ انظر الآية ٨٣ من سورة يونس:" **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ**"، لاحظ قوله تعالى:" **ملئهم**" وليس:" **ملئهِ**"، فقد كانوا يخافون من فرعون أن يفتنهم، ويخافون أيضاً من ملئهم، أي كبراء بني إسرائيل الذين كانوا يتواطؤون مع الفراعنة للبطش بمن يخالف سياسة فرعون. وهذا معهود في كل الأمم والعصور، بل إنّ عدم وجود أمثال هؤلاء الجواسيس والعيون والمتعاملين والمتواطئين غير متصوّر.

فيمكن إذن أن يكون هذا الإسرائيلي من المتواطئين مع الفراعنة ضد قومه، وهذا ما يُجرِّئه على أبناء جلدته وغيرهم من أبناء الشعب المصري. وبالتالي فقد كان عدواً لموسى، عليه السلام، ولخصمه الإسرائيلي في الحادثة الثانية. ويبدو أنّ موسى، عليه السلام، قد اكتشف أمره بعد الحادثة الأولى فكان مسارعاً للبطش به في الحادثة الثانية. وهذا واضح تمام الوضوح في قول الإسرائيلي الغوي:

" **قالَ يا موسى أتريدُ أن تقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس، إن تُريدُ إلا أن تكونَ جبّاراً في الأرض وما تريدُ أن تكونَ من المصلحين**": فهذه نذالة الجواسيس في أجلى صورها؛ فقد أصبح موسى بمنظار هذا الغوي جباراً بعيداً عن الإصلاح. ثم هو، كما تلاحظ، لا يعرف الوفاء

ولا يحفظ الجميل، وسريعاً ما ينقلب على من أحسن إليه، وهذه صفة في الجواسيس معلومة.

ويذهب الكثير من أهل التفسير إلى أنّ الإسرائيلي ظنّ مخطئاً أنّ موسى، عليه السلام، قادم للبطش به فقال قولته هذه. وهذا بعيد لأنّ النص القرآني يقول:" فلما **أنْ** أراد أن يبطش"، ولم يقل:" فلما أراد أن يبطش"؛ فإضافة (**أنْ**) يؤكد أنه، عليه السلام، أوشك على أن يبطش به.

ولمُلئتَ منهم رُعباً

قصة أصحاب الكهف هي القصة الأبرز في سورة الكهف، حيث لجأ عدد من الفتية إلى كهف مجهولٍ فراراً بعقيدتهم، فضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ٣٠٩ سنوات. ثم بعثهم الله تعالى بعد ذلك من نومتهم ليجدوا أنّ الدين الحق قد انتصر وانتشر...الخ. ولا شك أنّ ما حصل كان معجزة يُكرم الله بها عباده ليعلموا أنّ وعد الله حق وأنّ الساعة لا ريب فيها.

يُصرّح النص القرآني الكريم بأنّ من يَطّلع على هيئة الفتية في نومتهم يمتلئ رعباً. وهذه إشارة إلى احتمال حصول تحولات في أجسامهم تناسب واقعهم العجائبي. ونحن هنا نحاول أن نقدم تصوراً لما يمكن أن يكون قد حصل، مع إقرارنا بأنه مجرد تصوّر. أما واقع ما حصل فعلمه إلى الله سبحانه وتعالى.

جاء في الآية ١٨ من سورة الكهف:"... **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً**": وهذا يعني أنّ هذه المعجزة كانت وفق سنّة من سنن الله تعالى يمكن للبشر أن يجدوا لها تفسيراً فيما خلق الله تعالى من سنن وقوانين.

ملاحظات واقتراحات تساعد في تصوّر الحدث:

أولاً: رؤية جماعة نائمة في كهف لا تدعو إلى الرعب، وعلى وجه الخصوص قديماً، لأنّ ذلك كان من مألوف الناس.

ثانياً: قول الفتية بعد الاستيقاظ من نومتهم الطويلة: "... **لبثنا يوماً أوبعض يوم**"، يدل على أنهم لم يلاحظوا تغيّراً في أشكال بعضهم البعض.

ثالثاً: الرعب الذي يملأ الناظر إلى الفتية أثناء نومهم يمكن أن يشير إلى تغيّر في صورتهم تقتضيه سنن الله في الخلق والبقاء. ولا يتنافى ذلك مع قدرة الله المطلقة، لأنّ ذلك مرده إلى الإرادة الربانيّة.

رابعاً: معلوم أنّ الأفعى هي من ذوات الدم البارد، ويمكنها أن تدخل في سبات لمدة طويلة مكتفية بما كانت قد تناولته من طعام وشراب قبل البيات. ويرجع ذلك إلى أمور منها، أنها لا تملك دورة دموية كالثديات بحيث تستهلك الطعام والطاقة الناتجة عنه بسرعة. ثم هي تمتلك جلداً صلباً **أملس** خالياً من المسامات، وهذا يعني أنها تحتفظ بالسوائل والطاقة فلا تُستنزف بسرعة.

واستناداً إلى هذا نقول: إنّ الفتية عند نومهم الطويل يحتاجون إلى دورة دموية بطيئة، وهم بحاجة ملحة إلى أن تحتفظ أجسادهم بالسوائل والطاقة. وهذا يعني أن تتحول جلودهم فتصبح أقرب إلى الصلابة وأبعد عن المساميّة، بما يشبه جلد الأفعى.

خامساً: ضغط منخفض جداً وجلد أملس صلب، ألا يجعل ذلك كله صورة الفتية مرعبة لكل من يطلع عليهم.

سادساً: الجلد الصلب يعني مساحة أقل، وهذا يؤدي إلى أن تكون العيون مفتوحة أثناء النوم. انظر قوله تعالى في الآية ١٨ من سورة

الكهف:" **وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود...**". يضاف إلى ذلك أن تتراجع الشفتان عن الأسنان. وبإمكانك الآن أن تتخيل المنظر!!

سابعاً: الخروج من هذه الحالة لا يكون مفاجئاً، وإنما تكون عودة تدريجية حتى تعود الأمور إلى وضعها الطبيعي، ثم يستيقظ الفتية وهم في حالة طبيعية. ولكن حاجتهم الشديدة إلى الطعام تجعلهم يسارعون إلى إرسال أحدهم لشرائه. وهذا يشير إلى أنهم لم يخططوا للأمر قبل أن يلجأوا إلى الكهف، وإنما كان الأمر مفاجئاً لهم.

ثامناً: أمّا شمسُ المغيب الهادئة غير المحرقة فتمس أجسادهم كلّ يوم لتعطيهم الطاقة المطلوبة، وعلى وجه الخصوص الأطراف البعيدة عن مركز الدورة الدموية البطيئة.

تاسعاً: التقليب لأجسادهم، ووضعية الكهف، والكلب الموصد للباب، واتساع الكهف بقدر محدد..... كل ذلك رسائل لنا لنتفكّر ونتدبّر.

ذلك من آيات الله

جاء في الآية ١٧ من سورة الكهف:" **وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تَقرضُهم ذات الشمال وهم في فَجوةٍ منه، ذلك من آيات الله، من يهد اللهُ فهو المهتدِ ومن يُضلل فلن تجدَ له ولياً مُرشداً**".

تشير الآية الكريمة إلى أنّ وضعيّة الكهف واتجاهه آية من آيات الله. وهذا يعني أنّ مثل هذه الوضعيّة والظروف والشروط قد أعدت مُسبقاً بحيث أصبحت مناسبة لمن سيحل ضيفاً في هذا الكهف. ونقول بلغة أخرى: لقد أعدّ هذا الكهف قبل ميلاد الفتية بسنين، بل بقرون، وقد تبلغ ملايين، بل مليارات السنين.

عندما اختار الفتية هذا الكهف لم يكن يخطر ببالهم أنهم يُقادون إلى المكان المهيّأ لاستقبالهم. إنها الهداية الإلهيّة إلى موضع الرعاية الربانية. إنها الألطاف التي لا تدركها الحواس. انظر قوله تعالى في التعقيب على آية الكهف هذه:" **من يهد اللهُ فهو المهتدِ ومن يُضلل فلن تجدَ له ولياً مُرشداً**"، فالمهتدي الحقيقي هو من هداه الله تعالى، أما من حكم الله عليه بالضلال والخذلان فلن تجد من يتولاه وينصره حق التولي وحق النصر، ولن تجد من يرشده سبيل الرشاد.

فهذه هي المعادلة إذن: معسكر موحِّد يحمل دعوة الله ويعيش من أجلها ويضحي في سبيلها، يقابله معسكر وثني يخلد إلى الأرض ويذهل عن الحقيقة العظمى. معسكر تحوطه الرعاية الربّانية وتنير طريقه الهداية الإلهيّة، ومعسكر يستنصر بالأوهام ويسترشد بالظلام. نعم، بإمكانك الآن أن تتوقع النتائج وأن تتصور المآلات.

" **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**"، فقافلة أهل الإيمان تغادر مواقع الظلمات والضلالات في طريق صاعد يشرق كل يوم بأنوار الهداية فلا انتكاس. ويقابل ذلك:" **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**"، قافلة أخرى تسير بالاتجاه المعاكس تغادر عوالم أنوار الحق والحقيقة لتدخل شيئاً فشيئاً ظلمات الجهالة والضلال.

إنها الحقيقة التي تراها ماثلة في واقع دعوة الحق ودعوة الباطل؛ فالماركسية مثلاً، صالت وجالت وحاصَرت وبطشت وضيّقت واستنفدت كل وسائلها في محاولة اجتثاث الحق، واستمر ذلك على مدى القرن العشرين، فكانت المفاجأة أن انجلى غبار المعركة عن الحقيقة الساطعة:" **فأمّا الزبد فيذهبُ جُفاء وأما ما ينفع الناسَ فيمكث في الأرض**".

واليوم تقع الرأسمالية الغربية في الخطأ نفسه وهي تحمل لواء الشيطان فتبطش وتقتل وتحاصر وتضيّق وتطارد ... وسينجلي غبار المعركة ليدرك الناس أنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً، ولتتجلى حقيقة العجز البشري أمام الحقائق الوجودية التي أرادها مالك الملك:" **قل**

اللهم مالكَ الملكِ تُؤتي الملكَ من تشاء وتنزعُ الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيءٍ قدير".

إني فاعل ذلك غداً

تتحدث الآيات من ٩ إلى ٢٦ من سورة الكهف عن قصة أصحاب الكهف. واللافت أنّ سرد القصة يتوقف في الآيتين ٢٣ و ٢٤ ليتم الإعلان عن مبدأ عقدي وهو:" **ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً، إلا أن يشاءِ اللهُ، واذكر ربك إذا نسيتَ وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقربَ من هذا رشداً**". ثم يعود النص الكريم إلى سرد القصة:" **ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا**".

قصة أصحاب الكهف هي قصة مغرقة في القدم. والقارئ للآيات الكريمة يعيش مع القصة لحظات جليلة مضت، ثم يفاجأ بكلام عن المستقبل، ثم عودة إلى القصة التاريخية. وهذا أمر يستحق التوقف والنظر؛ فإذا كانت القصة في القرآن الكريم تاتي للعظة والاعتبار فإنّ ذلك قاسم مشترك لكل القصص القرآني. أما هنا فهناك إشارة وتنبيه إلى أنّ ما تسرده الآيات الكريمة من تفاصيل قصة أصحاب الكهف له صلة بالمستقبل المقبل، على الرغم من كون أحداث القصة مضت في التاريخ.

ولا نهدف هنا إلى الحديث حول هذه المسالة، ولكن نهدف إلى التوقف عند الآية ٢٣ والآية ٢٤ لنطرح تصورنا حول المعنى الذي نراه أقرب إلى روح النص القرآني. وقد دفعنا إلى هذا ما رأينا من استناد جمهرة المفسرين في تفسير الآيتين الكريمتين إلى حديثٍ رواه ابن اسحق عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وهو الحديث الذي يورده بعض أهل

التفسير كسبب لنزول الايتين الكريمتين، وينص على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد نسي أن يقول: "إن شاء الله"، وذلك عندما قال لزعماء قريش إنه سيخبرهم غداً بخبر أصحاب الكهف. وهو حديث ضعيف، في سنده رجل مجهول العين. وعلى الرغم من ضعف الحديث إلا أنّ أهل التفسير يفسرون الآية بما يعزز المعنى المستفاد من سبب النزول هذا.

ولو كان الأمر كما يقولون لكان الأقرب في الذهن أن يكون نص الآية ٢٣ من سورة الكهف هكذا:"ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله"، ولكنك تفاجأ بأنّ نص الآية الكريمة هكذا:" **ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً**". ويدهشك أن تبدأ الآية ٢٤ هكذا:" **إلا أن يشاءَ اللهُ واذكر ربك إذا نسيتَ وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقربَ من هذا رشداً**" .

وإذا علمنا أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يقف في نهاية كل آية أدركنا أنّ المعنى قد تم. وإذا توهمنا أنّ المعنى لم يتم فعلينا أن نُمعن النظر، لعلنا نصل إلى المعاني المخبوءة خلف عدم الاكتمال الظاهري للمعنى. ومعلوم أنّ وضوح المعنى في الظاهريصرف أحياناً عن التدبر العميق.

"**ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً**": هذه بدهيّة عقديّة ينبغي أن تكون حاضرة في عقل وقلب كل مؤمن:"إياك أن تقول، وإياك أن تزعم، أنك فاعل في المستقبل"، فالله سبحانه هو المالك الحقيقي للحاضر والمستقبل:" **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاءُ**

وتنزع الملك ممن تشاءُ وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير" ٢٦ آل عمران. فعلى الإنسان إذن أن يتواضع لله فيُعلن أنه لا يملك المستقبل ولا يفعل في المستقبل.

إلا أنّ الإنسان قد يستشكل هذا الأمر عندما يلاحظ أنه يصنع المستقبل؛ فكم من خطة كانت في الذهن أو على الورق ثم خرجت إلى حيز الواقع، بل إنّ ذلك كثير، بل إنّ واقع البشرية يدل على أنّ ذلك يغلب في حياة البشر. فإذا قام هذا الاستشكال في الذهن جاء الجواب حاضراً في مطلع الآية التي تلي:**"إلا أن يشاءَ الله"**، فكل ما يقع من فعل كان مخططاً له من قَبل هو مما أذن الله به. فإذا رأيت الناس يخططون للفعل المستقبلي وينجحون في ذلك فاعلم أنّ ذلك مما أذن الله به.

"واذكر ربك إذا نسيت": فهذه إذن حقيقة ينبغي أن تكون حاضرة في الفكر والقلب. وإذا حصلت غفلة وذهلتَ عن هذه الحقيقة فاذكر ربك الذي خلقكَ ورزقك وهداك. نعم هو الذي خلقك وخلق قدرتك ومشيئتك وفكرك وعلمك، وهو الذي يأذن أن تفعل كل ذلك في المستقبل.

"وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً": ويبقى القلب متعلقاً بالله تعالى؛ فهو واهب العقل والقلب، وهو الهادي سواء السبيل. ولن يبلغ إنسان كمال الرشد، ولكن يمكنه أن يرتقي في معارج الهداية والرشد، وعليه أن يبقى ساعياً ومتشوقاً لأن يكون أقرب ما يمكن إلى حقيقة الرشد؛ فكلما وصل درجة طلب وتمنى أن يكون أقرب منها إلى حقيقة الرشد السامية... وهكذا في مسيرة ارتقائية لا تتناهى في عالمنا

الدنيوي. فإذا كنت طالباً الأقرب في أية حال وصلتها فإنّ ذلك يعني أنها مسيرة غير متناهية، كما هو الأمر عندما تقول: "الله أكبر"، فإنّ ذلك يشير إلى مفهوم لا نهائي على خلاف قولك: "الله كبير".

عندما يأتي مثل هذا الإعلان العقَدي في سياق القصّة فإنّ ذلك يُشعرُ بأنّ قصة أصحاب الكهف تتعلق بأمور مستقبليّة يجدر بمن يتدبر القرآن الكريم أن يتنبّه إليها، لعله يهتدي إلى بعض كنوز كتاب الله الحكيم.

فأتبع سبباً

جاء في الآية ٨٦ من سورة الكهف:" **حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة...**"، وجاء في الآية ٩٠ من السورة:" **حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم...**"

وقد استشكل أهل التفسير الآيتين، وذلك لما علم من أنّ الشمس لا تغرب في عين معينة ولا تشرق أيضاً على مكان محدد. جاء في أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري:"... وغروبها إنما هو نظر العين، وإلا فالشمس في السماء والبحر في الأرض". وهذا القول يمثل مذهب عامة أهل التفسير، وعلى وجه الخصوص بعد النهضة العلمية في العصور العباسية.

والذي نراه أن لا إشكال. ولإيضاح ذلك نقول:

أولاً: جاء في الآية ٩ من سورة المزمل:" **رب المشرق والمغرب...**"، وجاء في الآية ١٧ من سورة الرحمن:" **رب المشرقين ورب المغربين**"، وجاء في الآية ٤٠ من سورة المعارج:"**فلا أقسم برب المشارق والمغارب...**". فالآيات الكريمة تصرح بأنّ هناك مشرقاً ومغرباً، ومشارق ومغارب. بل هناك أيضاً مشرقان ومغربان، ويبدو أنهما يتعلقان بالشمس والقمر. ومعلوم أنّ في كل لحظة شروقاً وغروباً، ومعلوم أيضاً أنّ للشمس في كل يوم مكاناً للشروق يختلف عن اليوم السابق أو اللاحق، وكذلك الأمر في الغروب.

ثانياً: عندما تشرق الشمس على مكان تكون قد غربت في اللحظة نفسها عن مكان آخر. فالمكان الواحد هو مشرق بالنسبة لمكان ومغرب بالنسبة لمكان ثانٍ. ومن هنا لا نستطيع أن نصف مكاناً بأنه مشرق أو مغرب حتى نحدد الجهة التي ننسب القول إليها. فالأمر إذن هو نسبي.

ثالثاً: عندما تغيب الشمس في مياه البحر، تكون قد **غابت فيها حقيقة،** وليس الأمر كما تُوهمه عبارات الكثيرين عندما يقولون: "إنما هو نظر العين". وحتى يتضح المقصود نقول:"عندما تغيب الشمس ما الذي يُغيِّبها؟! الجواب: إذا كانت تغيب في البحر فالذي يُغيّبها ماء البحر، بدليل أننا لو أزلنا ماء البحر بعد غيابها بدقائق ستظهر الشمس مرة أخرى وتشرق. وإذا كانت تغيب وراء الجبال الشاهقة وقمنا بعد غيابها بدقائق بنسف الجبال فستشرق مرة أخرى.

رابعاً: لم يكن ذو القرنين يسير في الأرض على غير هدى، بل كان له مهمة محددة وكان يعلم ما يريد وأين يذهب. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بوضوح عندما قال، بل وكرر القول لتأكيد الأهمية وإبراز مركزية هذا الأمر في القصة:" **فأتبع سبباً**" الكهف٨٥، " **ثم أتبع سبباً**" الكهف٨٩، "**ثم أتبع سبباً**" الكهف ٩٢. والملاحظ أنّ كل عبارة هي **آية كاملة**.

جاء في تفسير الرازي:" السبب في أصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء". وعليه، **فالسبب: ما يُتوصّل به لتحقيق المراد، أي الهدف.** فذو القرنين إذن كانت له أهداف، وكان قبل أن يتوجه إلى مكانٍ مستهدفٍ ومعلومٍ له يقوم باتخاذ

كل الوسائل المتوقع أن توصله إلى هدفه. وكان يسلك ذلك السلوك في كل مرة يتحرك فيها نحو هدفه المعلوم. فذو القرنين إذن يخطط ويحسب ويُقدّر ثم ينطلق ولديه كل ما يلزم للوصول وتحقيق الأهداف.

خامساً: إذا عرفنا كل ذلك تبين لنا أنّ ذا القرنين كان يستهدف أماكن محددة؛ فقد كان مأموراً أن يتوجه إلى جهة الشرق حتى يصل إلى المكان المحدد له، وأن يتجه جهة الغرب حتى يصل إلى المكان الذي حدد له، وأن يتجه اتجاهاً ثالثاً علِمه فاتخذ للوصول إليه كل الأسباب اللازمة. فهناك إذن مكان جهة الشرق بالنسبة له، وآخر جهة الغرب، وثالث يحدده المكان الذي انطلق منه ذو القرنين.

وحتى نفهم المسألة دعنا نفترض أنه كُلّف بالاطلاع على واقع بعض الأمم في شرق إفريقيا وغربها وجنوبها، فعندما وصل غرب إفريقيا وجد الشمس تغرب في المحيط الأطلسي، وهذا حقيقة وليس ما تراه العين فقط. ولما وصل شرق إفريقيا وجد أنّ الشمس تشرق من البحر الأحمر، وهذه حقيقة، ولكنها لا تكون حقيقة حتى نحدد المكان قبل أن نحدد الاتجاه. ومن هنا يصح أن نقول: شرق إفريقيا البحر الأحمر، وغرب أمريكا المحيط الهادي. وبعبارة أخرى نقول: تُشرق الشمس على أمريكا من المحيط الأطلسي، وتغرب عنها في المحيط الهادي. وبغير هذا لا يمكننا أن نحدث بعضنا البعض.

سادساً: هناك احتمال أن يكون ذو القرنين نبياً، وإن لم يكن نبياً فتابع لنبي معاصر، ويظهر ذلك في قوله تعالى:"... **قلنا يا ذا القرنين إما أن تُعذبَ وإما أنْ تتخذَ فيهم حُسناً**" الكهف ٨٦

في مفهوم القرب

جاء في الآية ١١ من سورة الشورى: "... **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**"، من هنا ليس في قدرة البشر تصور ماهية الخالق سبحانه، لأنّ تصورات البشر نابعة عن الواقع المحسوس للأشياء. وإذا كانت ذاته سبحانه تختلف عن كل الذوات فصفاته أيضاً كذلك؛ فسمْعه يختلف عن كل سمع، وبصره يختلف عن كل بصر ... الخ. ومن الأمور التي أشكلت على البعض مسألة القرب والبعد؛ فالخالق لا يحده مكان، وعلى الرغم من ذلك يمكن أن تقصده في مكان فتكون أقرب، ويمكن أن تقصده في زمان فتكون أقرب، ويمكن أن تقصده بعمل فتكون أقرب. جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم:" **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**".

عندما كلّم الله تعالى موسى، عليه السلام، كان ذلك في الوادي المقدس، جاء في الآية ١٢ من سورة طه: " **إنّي أنا ربك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طوى**"، وهذا يعني أنه عندما أراد سبحانه أن يكلم رسوله اختار مكاناً مقدساً ليكلمه، فللمكان إذن خصوصية. وعندما أقّت الله تعالى لموسى وقومه موعداً للقائه كان ذلك أيضاً في مكان؛ فقد جاء في الآية ٨٠ من سورة طه: " **يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن** ..."، وجاء في الآية ١٤٣ من سورة الأعراف: " **واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا**.. "، وجاء في الاية ١٤٣ من سورة الأعراف:" **ولمّا جاء موسى لميقاتنا**

وكلّمه ربه، قال ربّ أرني أنظر إليك.. "، بل إنّ موسى، عليه السلام، قد استعجل اللقاء فسبق قومه إلى مكان اللقاء. جاء في الآية ٨٣ و ٨٤ من سورة طه: " **وما أعجلك عن قومك يا موسى، قال هم أولاء على أثري وعجلتُ إليك ربّ لترضى**".

جاء في الآية ٥٥ من سورة آل عمران: " **إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا...**"، وجاء في الآية ١٥٧-١٥٨ من سورة النساء: " **وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه...**"، واللافت هنا قوله تعالى:"**ورافعك إلي**" وكذلك: "**بل رفعه الله إليه**"، فالرفع هنا ليس رفع درجات كقوله تعالى:"**ترفع درجات من نشاء**"، بل الرفع كائن إلى الله تعالى. فإذا كان موسى، عليه السلام، قد عجل إلى مكان اللقاء وقال: " **وعجلتُ إليك ربّ** ... " فإنّ ذلك يجعلنا ندرك أنّ رفع عيسى، عليه السلام، كان إلى مكان في السماء له خصوصيّة، أي إلى **مكان يحظى بتجليات إلهيّة تجعل الإنسان فيه أقرب إلى الله تعالى.** ومن يحظى بمثل هذا المكان والمكانة يصح أن نقول إنّه عند الله، لأنه حظي بالقرب. ومن كان عند الله يكون في مكان خَصّه الله بتجلياته ورحماته وغير ذلك مما لا يطيقه العقل ولم يصل إليه التصور. وقد دلّت نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف على وجود مثل هذه الأماكن؛ كالبيت المعمور، وسدرة المنتهى، وجنة الماوى ... الخ.

مسألة في الاستواء

طال الخوض في مسألة الاستواء. ولا نقصد هنا أن نخوض مع الخائضين، لأننا نعلم أنّ الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته. كما ونعلم حقيقة قصور العقل البشري عن إدراك جوهر المطلق سبحانه. وإنّ من علامات الخلل في الفهم والإدراك، الخوض في عالم اللانهائيات. وقد مضت سنوات طويلة ونحن نُعلّم وندرّس فلم نجد حاجة إلى أن نخوض في مثل هذه المسائل، لأنّ الناس بفطرتها السوية تفهم الأمور من غير لبس، ولم نجدهم يوماً يطرقون في أسئلتهم مثل هذه القضايا، حتى جاء من يبعث فيهم الجدل القديم ويكدر صفو إيمانهم.

فالذي نقصد إليه في هذا المقال أن نبين معنى الاستواء، لإدراكنا أنّ وضع النقاط على الحروف يساعد على الفهم الصحيح ويحفظ من الزلل.

جاء في الآية ١٤ من سورة القصص:" **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً...**": يقول الطبري، رحمه الله:" استوى: تناهى شبابه وتم خلقه..."، ويقول الألوسي، رحمه الله:" استوى:" كمل وتمّ..". فاستوى هنا فيها معنى اكتمال خلقه واكتمال نضجه عليه السلام. **وجاء** في الآية ٢٩ من سورة الفتح:"... **كزرع أخرج شَطأه فآزرهُ فاستغلظَ فاستوى على سوقه...**": هنا أيضاً نجد أنّ استوى تحمل معنى اكتمال النضج أو اكتمال الاستقامة. **وجاء** في الآية ٤٤ من سورة هود:"...

وقُضِي الأمرُ واستوت على الجُودي..": والمقصود هنا سفينة نوح، عليه السلام، حيث استقرت على جبل الجودي، كما يقول أهل التفسير. وكلمة استوت هنا لا تعني استقرت، وإنما تعني استقرت تماماً، أو اكتمل استقرارها. **وجاء** في الآيتين ١٢،١٣ من سورة الزخرف:" **والذي خلق الأزواج كلَّها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون، لتستووا على ظهورِه ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه...**": هنا الاستواء لا يعني الاستقرار، ولكن يعني كمال الاستقرار. والاستواء هنا لا يعني العلو، وإنما فُهم العلو من لفظة **عليه**، وليس من لفظة **استويتم**. **وجاء** في الآية ٢٩ من سورة البقرة:"... **ثمّ استوى إلى السماء فسواهنّ سبعَ سماوات...**": هنا عدّيت استوى بـ إلى فلا تفيد معنى كمال العلو وإنّما تفيد كمال القصد، فقد كانت السماء واحدة في كينونتها فتوجه الخالق بإرادته التي هي كاملة وقدرته الكاملة إلى جعلها سبع سماوات. **وجاء** في الآية ١٨ من سورة السجدة:" **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون**": المقصود هنا المساواة. والتساوي هو في الحقيقة كمال التماثل. والخط المستوي في اللغة هو الخط المكتمل في استقامته.

وعليه يمكن أن نقول: **إنّ الاستواء هو كمال الحال أو تمامه**. وسياق الكلام هو الذي يفيد الحال التي اكتملت أو تمت أو الكاملة التامّة. **ومن هنا لا يصح أن نعطي معنى كلمة استوى حتى نعلم الحال التي يقصدها الكلام**. وعليه فإن كلمة استوى لا تفيد معنى **العلو** حتى تُعدّى بعلى، فتعني عندها كمال العلو الذي أفادته لفظة **على**. ولا تفيد معنى

قَصَدَ حتى تُعدّى بـــ إلى، ولا تعني الاســـتقامة حتـــى يفيـــد الـــسياق ذلك....الخ.

جاء في الآية ٣ من سورة يونس:" **إنّ ربكم اللهُ الذي خلق الـــسماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبّرُ الأمـــر...**": هنـــا استوى تفيد العلو كونها عُدّيت بعلى. **فعلى** هنا هي التي تفيد العلو، أما استوى فتفيد كمال العلو الذي أفادته على. فعلو الله على العرش هـــو العلو الكامل الذي لا نقص فيه، فهو استواء. أما لماذا استخدمت هنـــا لفظة (ثم)؟! فالجواب: لأنّ الخلق لا يكون كاملاً وتاماً من بدايته، فذلك يتعلق بالإرادة الإلهيّة؛ فإذا أراد الله الوجود على الوجه الفوري فإنمـــا يقول له كن فيكون. وإذا أراده متدرجاً، لحكمة يعلمها، يكون متـــدرجاً في وجوده حالاً بعد حال. وهذا من إيحاءات صفة الصبور.

وبما أنّ الخلق بدأ صغيراً وتكامل كبيراً، كان كمال العلـــو الربـــاني- والذي هو كمال دائم- على الكبير الذي يتضمن ويشتمل على الخلـــق الأصغر، ومن هنا جاءت ثمّ. فثمّ المتراخية تكون من جهـــة تـــدرج ظهور المخلوق للوجود.

سنفرغ لكم أيها الثقلان

جاء في عمدة الحفاظ للسمين الحلبي:" الزوج في اللغة: الواحد الذي يكون معه آخر، والاثنان زوجان، يقال زوجا خفٍّ وزوجا نعل...".
إذن لا يقال عن الفرد زوج حتى يكون معه آخر يكمّله في وظيفته.
والزوجية قانون كوني، انظر قوله تعالى في الآية ٤٩ من سورة الذاريات: " **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**"، وجاء في الآية ٣٦ من سورة يس:" **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**".
المتدبر لسورة الرحمن يلاحظ من البداية التركيز على الثنائيّة في الخلق والتكوين، ويلفت انتباهه الخطاب المتكرر للمخلوقَيْن المكلَّفَيْن، أي الإنس والجن:" **فبأي آلاء ربكما تكذبان**".
وهذا ينبهنا إلى الثنائيّة في خلق الإنس والجن؛ ففي الإنس هناك الأنثى والذكر، وفي الجن أيضاً، كما تؤكد الآيات القرآنية الكريمة.
وإذا كانت الثنائية الزوجيّة قانوناً في عالم الإنس وعالم الجن بحيث يُكمّل كل زوج زوجه في الوظيفة، فما الذي يمنع أن تكون الثنائية في خلق **الإنس والجن** هي ضمن القانون العام من أجل أن تتكامل الوظائف، وإن كانت النصوص القرآنيّة تؤكد بأنّ الإنسان هو الأهم في هذه المعادلة الثنائية. وهذه الأهمية لا تمنع أن يكون وجود عالم الجن مهماً من أجل تكميل عالم الإنس. ويبدو أنّ وجود عالم الجن كان المقدمة لوجود العالم الأهم، أي عالم الإنس. وهذا لا يعني التقليل من

أهمية عالم الجن، فالآيات القرآنية تؤكد أهمية عالم الجن بل وتقرنه بعالم الإنس.

جاء في الآيتين ١٧ و ١٨ من سورة الرحمن:" **رب المشرقين ورب المغربين، فبأيّ آلاء ربكما تكذبان**"؛ فالشروق والغروب إذن من النعم التي أنعمها الله تعالى على هذين المخلوقين المتكاملين في وجودهما وكينونتيهما. وهناك شروق وغروب للشمس وشروق وغروب للقمر، وهذه ثنائية تكاملية؛ فعندما تغيب الشمس يشرق القمر، وعندما تشرق الشمس يغيب القمر. وللشروق وظيفة يكملها الغروب. وإذا كان النهار هو الأهم لحياة الإنسان والكائنات فإنّ الليل ضرورة تكمل وظيفة النهار، ولا يصلح النهار وحده حتى يكون ليل. ويبدو أنّ عالم الإنس كالنهار وعالم الجن كالليل.

جاء في الآيات (١٩، ٢٠، ٢١) من سورة الرحمن:" **مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فبأي آلاء ربكما تكذبان**"، فإذا كان هناك التقاء بين مياه البحر المالح والبحر العذب فإنّ هناك حاجزاً يمنع اختلاطهما ويمنع أن يبغي أحدهما على الآخر. وعليه فقد يكون هناك نوع من اللقاء بين عالم الإنس والجن، يدركه الجن أكثر مما يدركه الإنسان، ولكن هناك حاجزاً يمنع من الاختلاط ويمنع من أن يبغي أحدهما على الآخر.

لا نريد هنا أن نستمر في استعراض الآيات القرآنية من سورة الرحمن، ولكن قصدنا إيصال الفكرة التي تقول **باحتمال** تكامل هذين

العالمين. وهذا التكامل ليس دنيوياً فقط بل هو أيضاً مستمر في عالم الآخرة، أي في العالم الآخر الذي هو أهم، وما الدنيا إلا المقدمة له.

جاء في الآيتين ٤٦، ٤٧ من سورة الرحمن:" **ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان**": فإذا كان المقصود جنّة للإنس وجنّة للجن، فإنّ ذلك يعني أنّ قانون الثنائية يستمر في الآخرة؛ فالجنة التي يتمتع بها الإنس يوازيها جنّة أخرى يتمتع بها الجن. ويبدو أنّ وجود كل واحدة منهما ضرورة لوجود الأخرى. وعدم إحساس الإنسان بجنة الجن لا يعني أنه لا يتمتع بوجودها؛ فعندما نشعر بالنشاط، مثلاً، فإن ذلك لا يعني أننا قد عرفنا وأحسسنا بوعي بسبب هذا النشاط. والعكس أيضاً، فكم من مرض في الدنيا مسبباته مجهولة وغير محسوسة للإنسان.

تكرار الآية الكريمة:" **فبأي آلاء ربكما تكذبان**"، يفيد – زيادة على ما يقوله أهل التفسير– بأنّ عالم الجن يستمتع بما يستمتع به عالم الإنس. ويبدو أنّ الجن يشبه في خلقه خلق الإنسان إلى حد كبير، لأنّ ما تستعرضه سورة الرحمن من نِعم هي نِعم على الإنس والجن، بدليل تكرار السؤال لهما:" **فبأي آلاء ربكما تكذبان**". فعندما يصف القرآن الكريم الجنتين يقول:" **ذواتا أفنان**"، ثم يسأل:" **فبأي آلاء ربكما تكذبان**"، وهذا يعني أنّ الجنة التي تكون أغصانها غضة مورقة يتمتع بها الجن كما هو الإنس. ولا يمنع أن تكون الصورة هي الأمر المشترك بين عالمين مختلفين ولكنهما متكاملان. وعندما يقول

سبحانه:" **فيهما عينان تجريان، فبأي آلاء ربكما تكذبان**"، يدل ذلك على تمتع الجن بالعين التي تجري ... الخ.

وخلاصة الأمر، أنه بإمكانك أن تستعرض آيات سورة الرحمن لتأخذ فكرة مناسبة عن الأمور المشتركة بين الإنس والجن في عالم المتعة واللذة وعالم الألم والمعاناة. ونكرر فنقول: قد يكون التشابه في عالم الصورة؛ فهناك فُرش واتكاء، وهناك فواكه ونخيل ورمان... وهناك وهناك. ولكن قد يكون الواقع عبارة عن الصورة والصورة المقابلة المكملة للوظيفة. الصورة المحسوسة للإنسان يقابلها الصورة المحسوسة للجن. فهناك على ما يبدو عالمان يتماثلان في الصور ولكنهما يختلفان أيضاً بحيث تلائم كل صورة ما خُلقت له. ولكنهما عالمان متلازمان متكاملان يحتاج أحدهما الآخر لتتكامل الوظيفة.

جاء في الآية ٣١ من سورة الرحمن:" **سنفرغ لكم أيها الثقلان**": وهذا يشير بوضوح إلى أهمية الإنس والجن، بل كأنه لا يوجد عالم ثالث هو أهم منهما. أما الملائكة فهم عالم غير مكلف وله وظائف، بل لقد كُلف أن يسجد للإنسان. **فالثقل** يشير إلى الأهمية القصوى. وقد استشكل أهل التفسير معنى آية:" **سنفرغ لكم أيه الثقلان**"، ويرجع جزء من هذا الاستشكال إلى كونهم قد فهموا أنّ الآية هي في معرض التهديد. وفي الحقيقة لا إشكال، بل هذا يدل على أهمية هذين العالمين المتكاملين اللذين لا ينفكان دنيا ولا آخرة. والذي نراه أنّ الآية في معرض ذكر النعم التي أنعمها سبحانه وتعالى على الإنس والجن، وليست في معرض التهديد.

جاء في الآية ١٣ من سورة الجاثية:" **وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**": فبناء السماوات والأرض وكل ما فيها قد سُخّر للإنسان، بل إنّ هذا النظام الكوني سيبعثر وتعاد صياغته يوم القيامة، انظر الآية ٤٨ من سورة إبراهيم:" **يوم تُبدلُ الأرضُ غير الأرض والسماواتُ وبرزوا لله الواحد القهار**". فإذا كانت السماوات والأرض مسخرةٌ في الدنيا لصالح الإنسان، وإذا كان هذا النظام سينفضّ ويُستبدل عند قيام هذا الكائن ثقيل القدر، فمن المتوقع أن يكون النظام الأخروي مسخراً من أجله أيضاً- مضافاً إليه عالم الجن الذي يكمله- بحيث لا خلق إلا من أجلهما ومن أجل وظيفتهما الجليلة، التي لم يدرك الإنسان حتى الآن عظمتها وجلالها. انظر قوله تعالى:" **سنفرغ لكم أيها الثقلان**"، نعم، سيكون كل خلقٍ خُلِق، أو سيُخلق، هو لكما ومن أجلكما. وهذا يعني أنه لا بد لنا أن نعيد النظر في فهمنا للآيات الكريمة من سورة الرحمن، وغيرها من السور، في محاولة لتشكيل صورة حقيقية عن مكانة الإنسان في الدنيا والآخرة.

بورك من في النار

جاء في الآيات ٧_٩ من سورة النمل:" **إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**"

أشكل قوله تعالى:"... **بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا...**" على ثلة من أهل التفسير؛ فقال بعضهم إنّ مَنْ في النار هم الملائكة، وقيل موسى، عليه السلام، وقَدّر بعضهم محذوفاً ليقول إنّ المقصود هو الله سبحانه وتعالى، والذي أمره وكلامه في النار...الخ. وفي محاولة لإلقاء الضوء على المعنى المحتمل للنص الكريم نقدم بمقدمات من سورة طه وسورة القصص، حيث أتت بتفصيل للقصة نفسها، والتي تضعنا في صورة الحدث الجليل، عندما اختار اللهُ تعالى عبده موسى، عليه السلام، ليحمل رسالته:

جاء في الآية ١٢ من سورة طه:" **إِنِّي أَنا ربكَ فاخلع نعليكَ إِنّك بالوادِ المقدسِ طُوى**": فعندما نادى الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله، كان موسى، عليه السلام قد حلّ بالوادي المقدس، فقد أتى به اللطيف الخبير وهو لا يدري. **والمقدس:** هو المُطهّر. ويبدو أنه قد طُهّر تطهيراً خاصّاً من أجل أن يُكلِّمَ الجليلُ مُصطفاهُ. ومما يوحى بهذا المعنى قوله تعالى:"...**فاخلع نعليك** إنّكَ بالواد المقدّسِ طوى".

جاء في الآية ٣٠ من سورة القصص:" **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**": والوادي هنا هو الوادي المقدس طوى. أما الشاطئ فهو جانب الوادي. وأما الأيمن فيمكن أن يكون من اليُمن والبركة ؛أي الأكثر يمناً وبركة، وهذا يناسب أجواء الحدث؛ فالحدثُ في الوادي المقدس، وفي الجانب الأكثر يُمناً. أما إذا كان المقصود الجانب الذي على يمين الوادِي، فهذا على اعتبار أنّ مسيل الماء يُحدد جهة اليمين وجهة اليسار.

" **فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ** ": والبقعة هي القطعة من الأرض التي تتميز عن غيرها، وهي مباركة. والشجرة التي هي في البقعة مباركة أيضاً. ولا أدري ما الذي صرف المفسرين فلم يقولوا بأنّ البقعة هي مساحة مميزة في الشجرة؟! إلا إذا كانت اللغة العربية تأبى ذلك، على اعتبار أنّ البقعة هي القطعة من الأرض. وعليه يصبح المعنى: أنّ النداء كان في البقعة المباركة وبالذات من الشجرة.

فالوادي مقدس ومطهّر لاستقبال الحدث، وسيكون النداء في الجانب الأكثر يُمناً، وفي البقعة المباركة من هذا الجانب، وعلى وجه الخصوص في الشجرة المباركة. ونقول بعبارة أخرى: في الشجرة المباركة، الموجودة في البقعة المباركة، من الجانب الأكثر بركة، في الوادي المقدس، الذي يقع عند جبل الطور. هناك كان النداء الجليل في أجواء القدسيّة والبركة، وهو نداء سيقدّس ويطهّر، وسيفيض بالبركات

على من آمن من الناس. ولكن ابتداءً ستفيض البركات من الله تعالى على كل من حضر الموقف:

" **بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ": هذا هو النداء، وهذا هو الإعلان. وبما أنه نداء الخالق وإعلانه فقد حلت البركة على كل من شهد. ولفظة:" **بورك** " واضحة الدلالة على أنّ الله قد أفاض البركة على من في النار ومن حولها في هذا الواد المقدس. فقد تمت إفاضة البركة فتحصّلت لمن وُجد في المكان من العقلاء الذين تشير إليهم (**مَنْ**). وبهذا تكون البركة قد فاضت على كل موجودات الوادي، من العقلاء وغير العقلاء.

" **مَنْ فِي النَّارِ** ": لا أدري لماذا يحتار أهل التفسير عند تفسير هذه العبارة!! فلعلهم لم يتصوّروا أن يكون في النار أحد إلا واحترق، ومن هنا جاءت الحيرة!! ولا داعي لذلك كله، لأننا أمام حدث جليل لا ينتمي إلى السنن المعهودة. الخالق المطلق يكلم المخلوق المحدود، ويكون الكلام في النار التي هي في الشجرة.

ويكون في النار- التي يتكلم فيها الجليل- ما فيها من مخلوقات الله المدركة المنوّرة بأنوار القدس، والتي أتت في موكب مهيب تشهد نداء الله لرسولٍ من رسله من نسل آدم، الذي أسجدت له الملائكة الكرام. فلعلنا إذن نخمّن أنّ في النار المباركة- النار التي لا ندرك حقيقتها- ملائكةً يشهدون الوحي. فأفاض الله تعالى عليهم البركات.

" **وَمَنْ حَوْلَهَا** ": فالملائكة إذن فيها وحولها تملأُ المكان. أما موسى، عليه السلام، فظاهرٌ أنه ممن حولها. والمهم أنّ مَنْ في النار هم عقلاء يستحقون أن يفيض الله تعالى عليهم بالبركات، وكذلك من هم حولها.

" **وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ": أما الله تعالى فيتنزّه عن كل ما لا يليق بجلاله، وعظمته، وعزّته. وهو يفيض بالبركات على المخلوقات ولا يفيض عليه أحد، تعالى الله عمّا يظنّون.

وأخيراً نجد من المناسب لفت الانتباه إلى أنّ قول الله تعالى:" **بورك من في النار**"، قد أوصل إلينا معلومة بأنّ هناك كائنات مُكرّمة قد حلت في النار، وإن كنا غير قادرين على تصور ذلك، نظراً لمحدودية الحس والعقل لدينا. والمتدبر للآية العاشرة من سورة النمل:" **وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ**... "، يجد أنّ الله سبحانه وتعالى قد شبّه اهتزاز العصا باهتزاز الجن، على الرغم من كوننا لم نشاهد الجن، إلا أننا قد علمنا من الآية الكريمة حقيقة من حقائق عالم الغيب، ألا وهي أنّ الجن مخلوقات ذات اهتزاز.

مثل نوره

جاء في الآية ٣٥ من سورة النور:" **الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم**".

وجاء في الآية ٢٥٧ من سورة البقرة:" **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**"، وجاء في الآية ١٥ من سورة المائدة:" **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**"، وجاء في الآية ٣٢ من سورة التوبة:" **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم**". وجاء في الآية ١٧٤ من سورة النساء:" **وأنزلنا إليكم نوراً مبينا**"، وجاء في الآية ٤٠ من سورة المائدة:" **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**"، وجاء في الآية ٢٨ من سورة الحديد:" **ويجعل لكم نوراً تمشون به**"، وجاء في الآية ١٨ من سورة آل عمران:" **والكتاب المنير**".

فالوحي نور من الله وهو أيضاً نور الله؛ ومن يلتزمْ دين الله ويجاهدْ نفسه وشهواته يكن له نور يمشي به في الناس. والكُتب التي أنزلها الله على رسله هي نور، وهي أيضاً منيرة... والعلم نور... والفطرة السوية نور، والضوء كذلك نور...

عندما ينعكس الضوء على الأجسام الماديّة يكشف لنا جزءاً من حقيقتها، كالشكل واللون ... الخ، ومن هنا نقول إنّ الضوء نور، **لأنّه يوصلنا إلى حقائق الأشياء.**

فالنور: كل ما يوصلك إلى كُنه الأشياء وصفاتها وحقائقها. وما يقابل النور هي الظلمات. وعليه فالظلمات: سَتْر وحَجْب، وهي تحجب حقائق الأشياء. ومن هنا كانت الضلالة تلازم الظلمات، وكانت الهداية تلازم النور.

بما أنّ النور الإلهي غير مادّي وغير محسوس فكان تقريبه للعقل عن طريق المثال المادي المحسوس:

"**مثل نوره كمشكاة**": المشكاة هي الكوّة، وبلغة أخرى: طاقة في الجدار غير نافذة. وكانت في القديم تُجعل في جدار الغرفة ليوضع فيها السّراج. ولأنّ الكوة مغلقة من كل الجهات، إلا جهة واحدة، فقد كانت وظيفتها جمع شتات الضوء الصادر عن السراج ثم توجيهه بقوة داخل الغرفة. ثم هي أيضاً تحفظ السراج بداخلها. واليوم يمكن أن نُشبّه عاكس السيارة بالمشكاة، لأنّ مهمة هذا العاكس أن يجمع شتات ضوء مصباح السيارة ثم يوجهه فيضيء أمام السيارة بقوة هي أشد من إضاءة المصباح الحقيقية. وترجع هذه القوة في حقيقتها إلى جمع الشّتات والتوجيه إلى جهة الأمام.

"**المصباح في زجاجة**": عندما يكون المصباح في زجاجة تشتد الإضاءة، وهذا ملحوظ في واقع الناس. وعندما تكون الزجاجة نظيفة تكون الإضاءة أشد، وعندما تكون الزجاجة شفافة وصافية تصبح

الإضاءة أشد وأشد. فكيف بك إذا كانت الزجاجة رائقة متلألئة كأنها كوكب؟!.

"**الزجاجة كأنها كوكب دري**": وعندما تكون الزجاجة شديدة الصفاء، وتكون في صفائها تشبه الكوكب المتلألئ الذي هو كالدر في صفائه وبهائه وإزهاره، تكون الإنارة أشد وأشد وأصفى وأبهى.

"**يوقد من شجرة مباركة**": والمصباح لا بد له من وقود. وللوقود دور أيضاً في شدة الإنارة وبهائها، فعندما يكون هذا الوقود صافياً يساعد أكثر في إنتاج إنارة بهيّة، وهذا معروف في الواقع.

"**شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية**": يقال بأنّ الزيتون الذي يتعرض طوال النهار لضوء الشمس يكون زيته أشد صفاءً وبهاءً. وعندما تكون الشجرة شرقية تتعرض لضوء الشمس في الصباح دون المساء، وعندما تكون غربية تتعرض لضوء الشمس مساءً دون الصباح. وحتى يمكن أن تتعرض للشمس طوال النهار لا بد أن تكون في موقعها لا شرقية ولا غربية. ولذلك صور أمثلها أن تكون في رأس جبل.

"**شجرة مباركة زيتونة**": فزيت الزيتون كان يستخدم على مدى القرون في إنارة المصابيح. وفرق بين زيتونة وزيتونة، وزيت وزيت، فهذا زيت: " **يكاد زيتها يضيء**"، فمن شدة صفائه وبهائه يكاد يُضيء بنفسه. وصفاء الزيت بالإضافة إلى لونه البهي يجعله ينير ويتلألأ لأدنى ضوء يمسه.

"**شجرة مباركة زيتونة**": والنبتة تكون شجرة عندما تنمو وتتفرع. فإذا كان النمو والتفرع في الاتجاه السلبي تكون شجرة خبيثة، وإذا كان النمو والتفرع في الاتجاه الإيجابي تكون الشجرة مباركة. ولم يشهد القرآن لشجرة بالبركة كالزيتونة التي يطول الكلام حول منفعتها للبيئة والبشر. وقد مثّل القرآن الكريم للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، جاء في الآيتين ٣٤ و ٣٥ من سورة إبراهيم:" **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**".

"**نور على نور**": فهناك أكثر من عنصر في هذا المثال المادي المتكامل، وكلها عناصر تجعل المثال مثالياً في إعطاء صورة ذهنية للنور الرّباني مقابل الصورة الحسّية للمثال؛ فهناك مصباح تحيط به زجاجة شفافة صافية بهية، وهناك وقود صافٍ بهيّ متلألئ مستمد من شجرة تتوافر لها كل الشروط المطلوبة لعطاء فيّاض، فهي شجرة مباركة مبارك أصلها ومثالي موقعها. كل ذلك في مشكاة مهمتها جمع شتات النور وتوجيهه في الاتجاه المطلوب ليحقق الهدف.

هذا هو المثال المادي الذي يقرب لنا الصورة الذهنية لأمر غير مادّي. فلننظر **ما يُمكن أن يقابل** كل عنصر من هذه العناصر المادّية في عالم المعنى:

أولاً: المصباح: يمكن أن يقابله العقل البشري. فالعقل نور، لأنّه وسيلتنا لإدراك حقائق الأشياء، وقد خلقه الله تعالى لينير لنا.

ثانياً: الزجاجة: يمكن أن يقابلها النفس البشرية؛ فعندما تكون النفس مُدنسة بالمعاصي فإنها تنعكس سلباً على عطاء العقل، تماماً كما يحصل عندما تتراكم الأتربة والأوساخ على سطح زجاجة المصباح. وتربية النفس وتزكيتها تؤدي إلى صفائها وبهائها بحيث تزيد من نور العقل وقوة الإدراك، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بحقائق الكون الجوهرية، أي المتعلقة بأمور الدين والطريق إلى الله تعالى. فالله سبحانه غاية شريفة لا يصلها الإنسان إلا بوسائل شريفة على خلاف حقائق الكون المادّية.

ثالثاً: الشجرة المباركة التي لا هي شرقية ولا هي غربية: يمكن أن يقابلها الوحي. فالوحي لا ينسب إلى جهة أرضية، بل هو سماوي علوي، ثم هو عطاء إيجابي مبارك لا ينتهي عند حد. وإذا كان زيت الشجرة المباركة يكاد من صفائه وبهائه أن يضيء ولو لم تمسسه نار، فإن الوحي ينير لك ويهديك حتى قبل أن تُعمل فيه العقل والفطرة.

وعليه نقول:

العقل مصباح ينير لنا ويوصلنا إلى إدراك الحقائق ولكنه يبقى قاصراً عن تحقيق المطلوبات، فلا بد من تزكية النفس أيضاً ليتكامل نور العقل والنفس.

لقد اهتم الفلاسفة بالعقل وأهملوا تزكية النفس فبقيت الفلسفة قاصرة عن هداية الإنسان إلى جوهر الحقائق. واهتم بعض أهل التصوف بتزكية النفس وتقاصروا عن الاهتمام بالعقل. وعليه فالنهجان قاصران عن تحقيق التربية المثلى، فلا بد من التربية المتكاملة للعقل والنفس

معاً. وحتى هذا لا يكفي، بل لا بد أن يستمد العقل من الوحي، ولا بد أن تكون تزكية النفس على أساس من الوحي أيضاً.

فالفلسفة بعيداً عن هدى الوحي ضلال ومتاهات، والتصوف بعيداً عن المنهج المستمد من الوحي ضلالات وهيام على غير هدى.

إذن: لا بد من الاهتمام بالعقل والنفس معاً، ويجب أن يكون الاستمداد من الوحي، أي من تلك الشجرة المباركة التي لا تنتمي إلى أي اتجاه أرضي، والتي تعطي وتُمد بلا انقطاع، بل وتهدي كل من يستند إليها ويستمد منها ولو لم يكن من أهل الاستدلال والنظر.

وعلى الرغم من كل ذلك لا تكتمل الصورة ولا تجتمع كل الأنوار، حتى يتوافر العنصر الرابع:

رابعاً: المشكاة: يمكن أن يقابلها المسجد الذي يجمع أهل الإيمان والعمل والذين هم أهل الأنوار، فيقوم بجمع شتاتهم ثم يوجههم لينعكس كل ذلك خارج المسجد، أي في صعيد المجتمع، وبهذا تكون الصورة قد اكتملت:

تربية عقليّة، تربية وتزكية للنفوس، استمداد من الوحي، ثم جمع وتوجيه يقوم به المسجد لينعكس في المجتمع، وبذلك تتكامل أنوار الهداية.

الدليل على احتمال النص الكريم لذلك:

أولاً: لُخِص المثل في الآية ٣٥ من السورة:" **مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح ...**"، لاحظ مشكاة **فيها** ... وعندما ينتهي الكلام عن العناصر المادية للمثل نُفاجأ بأنّ الآيات التي تلي تبدأ بقوله تعالى:" **في بيوت أذن**

الله أن تُرفع ويُذكرُ فيها اسمه يسبح لـه فيهـا بالغـدو والآصـال، رجال...". لاحظ:" **كمشكاة فيها مصباح ... في بيـوت ... فيهـا ... رجال**". وغني عن البيان أنّ دور المرأة في المسجد دون دور الرجل، ودور الرجل في البيت دون دور المرأة.

ثانياً: يختم المثل في الآية ٣٥ من السورة:" **نور على نور يهـدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء علـيم**". فالكلام إذن عن هداية الله تعالى لمن يشاء من خلقه.

ثالثاً: بعد الانتهاء من هذا المثل المتعلق بأهل الإيمان نجد أنّ الآيـات التي تلي تضرب مثلين لأعمال أهل الكفـر وينتهـي المثـال الثـاني بالتعقيب الآتي:" ... **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**".

رابعاً: سميت السورة سورة النور، ما يعني أنّ هـذه المـسألة هـي المسالة المركزية في السورة. والملاحظ أنّ سورة النور تركز علـى المسائل الأسرية والاجتماعية وعلاقة الرجل بالمرأة. وهي مـسائل لا يسهل على العقل البشري أن يستقل بمعرفتها، وهي من أهـم أسـس صلاح المجتمعات البشرية. والمتدبر للسورة الكريمة يدرك أنّ تحقـق العلم والعمل بما جاء في السورة يضمن لنا الأساس لهدايـةٍ حقيقيـة للفرد والمجتمع.

انظر إلى المجتمعات الغربية لتعلم أنّ كل التقدم العلمي في المجالات المختلفة لم يغن عنهم شيئا، لأنّ العقل وحده لا يكفي. لذا فهم يفقـدون البوصلة، فلا يعلمون هدفاً للحياة ولا معنى لها. ونجدهم يقعـون كـل يوم في متاهة لا مخرج منها إلى درجة أنّ مرحلة العبثية، عند بعض

فلاسفتهم، هي المرحلة التي تأتي بعد مرحلة الحداثة... ولـــن يكـــون خلاص حتى تتكامل عناصر الهداية التي لخّصها المثل في الآيـــة ٣٥ من سورة النور.

الذي استوقد ناراً

جاء في الآية ١٧ من سورة البقرة:" **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون**".

تكرر السؤال حول تفسير هذه الآية الكريمة، وكنا نلحظ أنّ السائلين يستشكلون المثل المضروب. ويرجع جزء من هذا الاستشكال إلى التوجه العام للمفسرين؛ حيث يرون أنّ المنافقين- في المثال المضروب- هم الذين يستوقدون النار. فَمثلُ المنافقين إذن: كمثل شخصٍ أوقد ناراً ليستضيء بها، فلما أضاءت النار ما حوله، ذهب الله بنوره فلم يعد بقادر على الإبصار. وهذا القول هو مدار أقوال عامة المفسرين. وهنا لنا على هذا التفسير الملاحظات الآتية:

أولاً: المنافق لا يطلب الحقيقة ولا يسعى لها ولا يبذل جهداً من أجلها. وكلمة (استوقد) توحي بهذا الطلب وهذا الجهد.

ثانياً: الذي استوقد هو فرد واحد بدليل (الذي، حوله)، والذين ذهب الله بنورهم هم جماعة، كما هو النص الكريم. ويقول البيضاوي:" **والذي**: بمعنى **الذين**، كما في قوله تعالى: **وخضتم كالذي خاضوا**". وهذا غريب، لأنّ المقصود: وخضتم كالخوض الذي خاضوه، أي خضتم كخوضهم.

والذي نراه أقرب لظاهر اللفظة القرآنية الآتي:

مثلهم: أي مثلهم في موقفهم من دعوة الرسول، عليه السلام. وبعبارة أخرى: مثلهم معك يامحمد. والمثل هنا يتعلق بطرفين: الطرف الأول هو الرسول، عليه السلام، والطرف الثاني هو أهل النفاق. وعليه يصبح المعنى: مثلهم في موقفهم منك ومن دعوتك يا محمد، كمثل رجل اجتهد في إيقاد نار، فلما أفلح في ذلك وأضاءت النار ما حوله...، فالرسول عليه السلام هو ذلك الرجل الذي اجتهد في إنارة ما حوله بنور الهدى، فلما أفلح في ذلك وأُنيرت مِن حَوله البلاد بنور الهدى، واستجاب له الناس من حوله، كانت المفاجأة أنْ ذهب الله بنور هؤلاء لنفاقهم وفساد طويتهم. نعم، ذهب الله بالنور الذي خلقه فيهم ليهديهم؛ من عقل وفطرة وفرقان يجده من لم يدنس بالمعاصي...الخ. فليس الإشكال إذن في نور الوحي، فقد أضاء وأنار، وإنما الإشكال في العمى الداخلي الذي نتج عن معاصيهم ونفاقهم.

وعليه نقول:

١. النور: **كل ما يهديك ويوصلك إلى حقائق الأشياء؛** فالوحي نور، والعلم نور، والفطرة السوية نور، والضوء نور...الخ

٢. كما لا يكفي وجود الضوء في الغرفة حتى نبصر، كذلك لا يكفي نور الوحي حتى يهتدي الإنسان، لأنه لا بد من القدرة الداخلية على الإبصار والاهتداء. فهناك إرسال وهناك استقبال. وصلاحية القدرة على الاستقبال لا بد منها.

٣. المعاصي تُذهب الأنوار الداخلية التي تجعل الإنسان مبصراً لحقائق الدين، والتي تختلف عن حقائق الدنيا؛ فالله ــ تعالى ــ غاية شريفة لا يصلها الإنسان حتى يسلك سلوكاً شريفاً سوياً.

٤. لا تعجب من الذين يملكون عقولاً ثم هم لا يدركون أبسط الحقائق الإيمانية. ولكن انظر إلى سلوكهم في الحياة، لتعلم أنّ الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي. وهذه حقيقة دينية يمكن استقراؤها في حياة الناس. ألا ترى في واقع الناس أنّ أكثرهم التزاماً بمطالب الدين يكون أشدهم إيماناً وتصديقاً. وإذا كانت حقائق الفيزياء والكيمياء، وغيرها من العلوم الطبيعية، تحتاج إلى عقول فقط، فإنّ الحقائق الإيمانية تحتاج إلى عقول وقلوب. والقلوب تحتاج إلى سلوك سوي، والسلوك السوي يُفصّله الدين الحق.

٥. قد ننخدع أحياناً بالسلوك السوي الذي لا يُنتج إيماناً سوياً، لأننا لا نطّلع على سلوك القلوب، ولكنّ الله يطّلع. والكِبرُ من أخطر أمراض القلوب التي تصرف المتكبّر عن حقائق الإيمان. انظر الآية ١٤٦ من سورة الأعراف:" **سأصرفُ عن آياتيَ الذين يتكبرونَ في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها...**".

الإنسان ذلك الكائن!!

جاء في الآية ١٤ من سورة لقمان:"... **أن اشكر لي ولوالديكَ إلي المصير**"، فوجود الإنسان نعمة عظيمة يُشكر خالقها ويُشكر من كان واسطة في تحققها. والملاحظ أنّ أغلبية الناس لا تدرك أهمية وجود الإنسان ومركزيته في هذا الوجود. ويؤدي الجهل بالقيمة العظيمة للإنسان إلى الاستهتار به والتفريط بحقوقه. وفي الوقت الذي يدرك فيه الإنسان أهمية وجوده ومركزيته في الخلق ستختلف نظرته إلى نفسه وإلى الآخرين، وسينعكس ذلك بعمق على أدائه وسلوكه في الحياة. ونحن هنا بصدد تسليط الأضواء على مكانة الإنسان ومركزيته في الوجود كما جاء في القرآن الكريم.

قبل خلق الإنسان هُيّئت الأرض لاستقبال هذا المخلوق المكرم، بل لقد سُخّرت السموات والأرض من أجله، انظر الآية ٢٠ من سورة لقمان:" **ألم تروا أنّ الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض** ..."، وانظر الآية ١٣ من سورة الجاثية:" **وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**"، فكل هذا الخلق العظيم، الذي يفوق في عظمته قدرتنا على التصور، قد خلق من أجل هذا القادم الذي يجهل قدره ومكانته!! وعندما أصبح هذا الوجود العظيم جاهزاً لاستقبال الإنسان أخبرت الملائكة الكرام بأنّ الخليفة قادم، انظر الآية ٣٠ من سورة البقرة:" **وإذ قال ربك للملائكة إني**

جاعلٌ في الأرض خليفة..."، وعندما ظهر أنّ الملائكة لم تستشعر عظمة وجلال هذا المخلوق تمّت المبارزة التاريخية والتي أظهرت تفوق الإنسان من خلال قدرته العقلية وقابليته وقدرته على التعلم.

وطالما أنّ هذا المخلوق المفضّل عظيم القدر قد وجد، فقد آن الأوان أن تعترف المخلوقات، وعلى رأسها الملائكة والجن، بمكانته ومركزيته وجلال قدره وفوقيّته، فكان الأمر من الخالق سبحانه:"...**اسجدوا لآدم**.."، فسجدت الملائكة وأبى إبليس، الذي كان من الجن. ويبدو أنه أدرك أنّ الجنّ قد فقدت المكانة العظيمة التي كانت تطمح إليها قبل خلق هذا الكائن، وجادل في أحقية الإنسان، جاء في الآية ١٢ من سورة الأعراف:"... **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**". وهذه حجة غير مقبولة، لأنه يرفض الأمر الألهي، فالله هو الذي خلق وهو الذي يختار ويجتبي بعلمه وحكمته وإرادته المطلقة. ولكنّ هذا الرفض من إبليس يشير إلى أنه يعلم حقيقة وعظمة وجلال ما فُضّل به آدم، مما جعله يشط ويقع فيما وقع فيه من معصية.

وكانت الخلافة في الأرض، ولأجلٍ مسمى، ولحكمةٍ يريدها الخالق عز وجل. وستنتهي هذه الخلافة، فتأتي المرحلة الثانية والأخيرة (الآخرة) ليقوم الإنسان من أجل ممارسة وظيفته الحقيقية، والتي هي أعظم من أن يدركها العقل البشري المرهون الآن لقوانين الحياة الدنيا، ويبدو أنّ إبليس قد أدركها – ولو بقدر – فكان منه ما كان. وإذا كان نظام

السماوات والأرض قد سخر للإنسان للقيام بوظيفته الدنيوية المؤقتة، فقد آن الأوان أن يُغيّر هذا النظام ويُستبدل ليلائم الوظيفة الجديدة الدائمة غير المؤقتة. انظر الآية ٤٨ من سورة إبراهيم:" **يوم تُبدّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ** ..."، والآيات القرآنية التي تتحدث عن اختلال النظام الكوني عند قيامة الإنسان كثيرة.

أما يوم الحساب والفصل فعظيم، كيف لا، وهو يتعلق بكائن عظيم وهب العقل والاختيار ونفخ فيه من السر الرباني ما نفخ. وبعد الفصل يكون الرضا الكامل على من نجح وأفلح وتحققت فيه حكمة الوجود. ويكون في المقابل الغضب على من تدلّت به شهوته ولم يرتفع به عقله، ولم يكن يدرك عظمة نعمة العقل والاختيار، وفرّط في الفرصة العظيمة التي مُنحت له، ليكون في عالم السعادة اللانهائي وهو يقوم بتلك الوظيفة الجليلة التي خلق من أجلها. جاء في الآيتين ٢٢،٢٣ من سورة المطففين:" **إنّ الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون**"، وفي الآية ٣٥:" **على الأرائك ينظرون**". والسؤال هنا: ينظرون **إلى** أم ينظرون **في**؟ فإذا كانوا **ينظرون في**، فإن ذلك يعنى أنهم أصحاب قرار، فمثلهم كمثل ملوك الدنيا يجلسون في عروشهم ينظرون في الأمور ثم يبتّون في المسائل. جاء في صحيح الجامع للألباني:" سأل موسى ربه فقال: يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى

أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ رب، فيقول: لك مثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيتُ رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله..."، فإذا كان هذا هو ملك أدنى الناس منزلة فكيف بملك جميع أهل الجنة؟!! ألا يشير هذا إلى احتمال أن يكون للبشر سلطة كونيّة على أرجاء الكون الهائل وما فيه من كائنات ذات وظائف أدنى وتكون مسخرة للإنسان ورهن إشارته. جاء في الآية ٥٥ من سورة يس:" **إنّ أصحاب الجنة اليوم في شُغل فاكهون**"، فإذا كان هناك شغل فهو شغل المُنعمين، وإذا كان هناك وظيفة ففيها المتعة، لا كد ولا تعب ولا هم ولا نصب...ففي الأمر إذن غموض سببه قصور العقل البشري عن إدراك حقائق الآخرة، كيف لا، وهو لا يزال وبعد آلاف السنين، يجهل حقائق الدنيا، بل ولا يحيط إلا ببعض ظواهرها.

جاء في الآية ٢١ من سورة الإسراء:" **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرةُ أكبرُ درجات وأكبرُ تفضيلاً**". والفضل هو الزيادة، فإذا كانت الزيادة في الدنيا على مستوى القدرات والطاقات والعطاء هي زيادة تكاملية من أجل وجود حضاري دنيوي كمقدمة لعالم الآخرة، فما عسى أن تكون انعكاسات التفاضل في عالم الآخرة؟! وإذا كان رب العالمين وخالق الأكوان الهائلة يتخذ من البشر أخلاء:"... **واتخذ الله إبراهيمَ خليلاً** "(النساء:١٢٥)، فما عسى أن يكون شأن المقربين من البشر يوم القيامة.

هذا هو الإنسان وهذه مكانته في القرآن وفي الإسلام؛ فهو كائن مكرم مفضّل على الكائنات المخلوقة، شأنه عظيم وخطبه جليل، مسؤول ومحاسب يثاب أو يعاقب، وجد في هذه الدنيا لحكمة ويوجد في الآخرة لحكمة. أما المدارس المادية فترى أنّ الإنسان كائنٌ حي وجد صدفة، لا يتميز على باقي الكائنات إلا بالعقل الذي هو انعكاس المادة في الدماغ. فهو إذن ابن الصدفة ووليد المادة. أما قيمهُ ومبادئهُ فمن اختراعه، كما يخترع اللباس يلبسه متى شاء ويخلعه متى شاء. وهذا كما ترى في غاية الخطورة لأنه بمثل هذه الفلسفة يفقد كل شيء معناه وتصبح العبثية هي الأكثر منطقية، وتصبح الحياة لعبة قذرة، كما قال أرنست همنجواي قبل انتحاره. وتصبح الوجودية أكثر الفلسفات صِدقيّة ومنطقية، حيث ترى أن لا شيء له معنى، وأنّ الانتحار هو غاية إمكانات الإنسان.

عندما يرضى المادي لنفسه أن يهبط إلى هذا المستوى الحيواني، فعليه أن يعلم أنّ لذلك انعكاسات خطيرة، منها على سبيل المثال: لو قام أحد بقتله والاعتداء على كرامته وماله وعرضه من غير ما سبب، فليقل لنا هل في ذلك ما يتعارض مع القيم والمبادئ؟! فإذا قال نعم، فليقل لنا أية قيم وأية مبادئ، ومن الذي اخترعها ومن الذي يلزم الأقوياء بها؟! ما الذي يمنعنا أن ننساق مع شهواتنا إلى أقصى مدى متخطين كل الحواجز والحدود، هل في ذلك من بأس؟! ولماذا لا؟! تموت أكثر البشرية وتشقى ويعيش الرئيس الأمريكي بوش ورامسفيلد وتشني، هل هناك من بأس؟! ولماذا لا؟! ستالين يقتل عشرة ملايين

من سكان الاتحاد السوفييتي، ويقتل لمجرد الشك! لماذا لا، ولماذا لا يريح نفسه من الشكوك بالقتل والاستعباد؟! الأمريكان البيض يقتلون ١٢٥ مليوناً من الهنود الحمر، كما تُقتَل الصراصير والبراغيث والذباب، ما المانع؟! الرجل يستغل ضعف المرأة وجمالها إلى أقصى حدود، ما المانع، أليس ذلك ألذ؟! ولماذا لا يكون القول الفصل لموازين القوى والجمال والصحة والذكاء والحنكة والدهاء؟! ثم قل لماذا الحياة ولماذا الكد والتعب، أليس الموت عودة منطقية عن هذه المصادفة الورطة المسماة الحياة....؟!! بل إنني أرى أنّ الملحد الذكي لا يمشي على الأرض، لأنه انتحر منذ زمن بعيد، فهو أذكى من أن ينساق لمصادفة فيها التعب والمعاناة والألم، ثم هي بعد ذلك تنتهي بالموت.

أكثر ما يضحكك عجباً أولئك الملاحدة والماديّون الذين يتشدقون بقيم العدالة والمساواة وحقوق الإنسان، ويؤسسون ذلك كله على أساس من إيمان مادي قائم على فرضيّة الصدفة. وعندما يعجزون عن اقناعك بمسوغات الالتزام الإنساني يقومون باستعارة القيم الدينية مستغلين عدم انتباهك إلى هذه المفارقات العجيبة... إذا أدركت ما نرمي إليه تبيّنت أنّ المسألة الإيمانية هي المسألة الأولى والأساس في حياة البشر، وأنّ ما سواها يتفرع عنها، من هنا كان علم التوحيد هو أشرف العلوم على الاطلاق.

الذَّكَرُ والأُنْثَى

جاء في الآية ٣٦ من سورة آل عمران:" **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...**".

اللافت في الآية الكريمة تقديم لفظة الذّكَر على لفظة الأنثى. وهذا يعني أنّ المُشبّه هنا هو الذكر والمُشبّه به هو الأنثى. ومعلوم أنّ وجه الشبه يكون أقوى في المشبّه به، وهو هنا الأنثى. ولو قيل:" وليس الأنثى كالذكر..."، لوافق ذلك ميل الناس إلى تفضيل الذكر على الأنثى، ولأصبحت الآية من مستندات من يريد أن يُفاضل بين متكاملين. ونحن لا نشك بأنّ المرأة تفضل الرجل في أمور، وأنّ الرجل يفضل المرأة في أمور، وكل ذلك من مقتضيات الوظيفة التي شاءها العزيز الحكيم. وعليه لا يمكن المفاضلة بين الرجل والمرأة بالمطلق. ولكن لا بد عند كل مفاضلة من تحديد الوظيفة؛ فالمرأة مُفضّلة إذا كان المطلوب رعاية الطفل، مثلاً. والرجل مفضل إذا كان المطلوب نقل الأحمال الثقيلة.

جاء في تفسير ظلال القرآن لسيد قطب:" ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت، وكأنّها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذَكر ينهض بالمُهمّة: وليس الذكر كالأنثى".

وكأن سيداً رحمه الله يعتبر أنّ هذا من كلام امرأة عمران. ويُشكِل على مثل هذا الفهم تقديم الذكر على الأنثى في نص الآية الكريمة. وقد

تنبّه إلى ذلك بعض المفسرين، مثل الشوكاني في تفسيره فتح القدير؛ فهو يرى أنّ هذه الجملة هي من كلام الله تعالى، وبالتالي يكون المعنى عنده:" وليس الذكر الذي طلبتِ كالأنثى التي وضعتِ، فإنّ غاية ما أردتِ من كونه ذكراً أن يكون نذراً ... وأمر هذه الأنثى عظيم وشأنها فخيم ... واللام في الذكر والأنثى للعهد".

ويقول الصابوني في تفسير صفوة التفاسير:" والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين".

بغض النظر عن كون جملة: "**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى**"، من كلام الله تعالى أو من كلام امرأة عمران، فإنّ الذي يهمنا هنا أن نلفت الانتباه إلى كون الأنثى هي المشبه به، وبالتالي لا مجال لجعل هذه الآية مستنداً لتفضيل الرجل على المرأة، بل العكس هو الأظهر هنا.

جاء في الآيات ٤٩ – ٥٠ من سورة الشورى:" **يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا** ".

ذهب بعض أهل التفسير إلى أنّ تعريف الذكور وتنكير الإناث يشير إلى شرف الذكور وتفضيلهم على الإناث. ويردّ الشوكاني على ذلك فيقول في فتح القدير:" إنّ التقديم للإناث قد عارض ذلك، فلا دلالة في الآية على المفاضلة، بل هي مسوقة لمعنى آخر".

إذا كانت الآية الكريمة قد قدّمت الإناث في قوله تعالى:" **يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** "، فإنها أيضاً قدمت الذكور في

قوله تعالى:"**أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثاً**". إذا عرفنا هذا أدركنا أنّ التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، يرجع إلى أمور أخرى يجدر بنا أن نُعمل النظر فيها لعلنا نقتبس قبساً من بلاغة القرآن الكريم.

إنّ تنكير **إناثاً** وتعريف **الذكور** قد يشير إلى أنّ الأُسر التي يهبها الله تعالى إناثاً فقط هي أكثر عدداً من الأُسر التي يهبها الله تعالى ذكوراً فقط، وهذا أمر يلمسه الناس. ويمكن أن تُعزز هذه الملاحظة بإحصاءات يُراعى فيها الأسلوب العلمي في الإحصاء. أما تنكير الذكور والإناث في قوله تعالى: "**أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وإناثاً**"، فقد يشير إلى أنّ الأُسر التي تشتمل على ذكور وإناث هي الأكثر، وهذا ملموس بوضوح ولا يحتاج إلى إحصاء. وتقديم **ذكراناً** على **إناثاً** قد يشير إلى أنّ الأُسر التي يكون عدد المواليد الذكور فيها أكثر من عدد الإناث هي الأكثر في المجتمعات البشريّة. وهذه الحالة تحتاج منا، كمهتميّن، إلى **دراسة إحصائيّة**.

إنزال الأنعام

جاء في الآية ٢٥ من سورة الحديد:"... **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**... "، وجاء في الآية ٦ من سورة الزمر:"... **وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**... ".

جاء في شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي المتوفى عام ٧٩٢ هـ:"... فالحديد إنّما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض. وقد قيل إنّه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود. والأنعام تُخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال: أنزل ولم يقُل نزّل، ثم الأجنّة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض. ومن المعلوم أنّ الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتُلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سُفل... "[١].

لا يختلف موقف ابن أبي العز عن موقف الكثيرين الذين يصرفون معاني الألفاظ عن الحقيقة اللغوية، لأنهم ببساطة لا يقبلون القول بنزول الحديد والأنعام من السماء، وهم بذلك يُحكّمون معارفهم القاصرة في كلام الله العزيز الحكيم. فمن أين لهم القول بأنّ الأنعام قد خلقت في الأرض؟! وهل يستحيل في العقل أن يُنزّل الخالق القدير ما شاء من المخلوقات لحكمة يريدها؟! وإذا كنا لا نتصور ذلك فكيف

---

[١]. شرح العقيدة الطحاوية – الدار الإسلامي – عمان ، ص ١٨٢ .

أمكننا أن نتصوّر حادثة الإسراء والمعراج، وحادثة نزول آدم وزوجه إلى الأرض. أمّا أهل الإلحاد فإنهم أسرى الواقع المحسوس ويـذهلون عن كل ما وراءهُ من أسباب وعلل.

ذكر الأستاذ زغلول النجار – وهو مختص في هـذا البـاب – بـأنّ العلماء يجزمون بأنّ الحديد لم يتكون في الأرض ولا في المجموعـة الشمسيّة، لأنه يحتاج إلى طاقة هائلة لا تتوافر في المجموعة الشمسية ... ومن هنا نجدهم يُقدّمون تفسيراً لوجود الحديد في الأرض يتمثـل في انفجار بعض النجوم المحتوية على عنصر الحديد وتناثر مكوناتها في الفضاء مما أدّى إلى نزول الحديد بكثافة على الأرض، وذلك فـي الوقت الذي كانت فيه الأرض هشّة غير متماسكة، وفي الوقت الذي لم يكن الغلاف الجوي قد تكوّن، مما أدّى إلـى اختـراق ذرات الحديـد لطبقات الأرض المختلفة.

إنّ مثل هذا الكشف العلمي المعاصر يجعلنا نفهم من غير حيـرة ولا ارتباك قوله تعالى:" **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيـدَ**"، وبالتالي لا داعـي بعـد ذلـك للتأويل، ولا داعي لصرف الألفاظ عن ظاهرها وحقيقتها اللغوية.

وما يقال في الحديد يُقال في الأنعام، إلا أنّ نزول الأنعام وتميُّزها على باقي الحيوانات والدواب يدفعنا إلى التنبّه إلى ضرورة إجراء دراسات مستفيضة تتعلق بالأنعام، لأنّ الآيات الكريمة وضعت أيدينا على بداية الخيط الذي يمكن أن يقودنا إلى اكتشاف بعض أسرار الخلق.

جاء في الآية ٦ من سورة الزمر:" **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثلاثٍ...**".

يذهب أهل التفسير إلى أنّ النّفس الواحدة هنا هي نفس آدم، عليه السلام، والذي خُلق خلقاً متميزاً، كما هو الأمر في خلق المسيح، عليه السلام:" **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ...**" آل عمران: ٥٩، وكذلك الأمر في خلق حواء التي خُلقت من نفس آدم على خلاف القانون في باقي الأحياء. ثم كان خلق باقي البشر وفق سنّة التزاوج. وهذا يدل على كرامة هذا المخلوق البشري وأهميته ودوره القادم في عالم الآخرة.

"... **وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...**": من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين. واللافت أنّ الكلام عن نزول الأنعام جاء بعد الكلام عن خلق آدم وحواء وقبل الكلام عن قانون الزوجية. وقد يشير ذلك إلى أنّ نزول الأنعام كان قبل نزول الإنسان وتمهيداً لنزوله، وذلك لأهميّة الأنعام التي ذللها الخالق الحكيم، انظر الآيات ٧١-٧٣ من سورة يس:" **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ** ". واللافت هنا قوله تعالى:"... **مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا...**". وكيف لا يكون الأمر لافتاً ومثل هذا التعبير لم يرد في القرآن الكريم إلا في الآية ٧٥ من سورة

ص، وذلك في حق آدم، عليه السلام:" **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** "، فمثل هذا التعبير يشير إلى تكريم خاص لهذا المخلوق المُكلّف. أمّا خصوصية خلق الأنعام فقد ترجع إلى أهميتها بالنسبة للإنسان المستخلف في الأرض.

جاء في الآيتين ١٣٢-١٣٣ من سورة الأنعام:" **وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ**": واللافت هنا تقديم الأنعام على البنين، وهذا يعزز ما غلب على ظننا من أنّ إنزال الأنعام كان قبل أن يحصل حَمل أمنا حواء ومن ثَمّ الإنجاب والتناسل البشري.

جاء في الآية ٢٨ من سورة فاطر:" **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**"، اللافت هنا تمييز الأنعام عن باقي الدواب، وقد يعزز هذا ما ذهبنا إليه من القول بالخلق الخاص للأنعام. والمتدبر للقرآن الكريم يلاحظ أهمية الأنعام للإنسان. وهذه الأهمية تزداد إلى درجة أنك اليوم لا تكاد تحصي المنافع التي يُحصّلها الإنسان المعاصر من هذه الأنعام. وبذلك ندرك بعض أسرار محاربة الإسلام للعقائد الشركيّة التي كانت تُحرّم بعضاً من الأنعام في صورة البحيرة والسائبة والوصيلة ...، بل لا تزال آثار هذه العقائد الفاسدة تعمل سلبياً في حياة بعض الأمم، مثل الهندوس الذين يُقدّسون البقرة.

لا شك أنّ تذليل الأنعام وتدجينها للإنسان من الأمور اللافتة في خلقها، فكأنّ واقعها يقول: لقد خُلِقتُ لخدمة هذا الكائن المكرم، وجُعلتُ قريبة منه. بل هي بحاجة إلى رعاية الإنسان وحمايته، فانظر إلى الخراف،

مثلاً، هل تملك لنفسها شيئاً أمام اعتداء الحيوانات المفترسة، على خلاف ما هو عليه الغزال من السرعة والحذر.

إنها دعوة مُوجّهة إلى أهل العلم والنظر لعلنا نعيد تقييم نظرتنا إلى أصل هذه الكائنات ووظيفتها وما يحمله خلقها من أسرار. ولا يفوتنا في النهاية أن ننبه إلى أنّ هناك سورة من السور الطوال سُمّيت سورة الأنعام، وأنّ أطول سورة من سور القرآن الكريم هي سورة البقرة.

إلا الموتة الأولى

جاء في الآية الثانية من سورة الملك:" **الذي خلق الموت والحياة ليبلُوَكُم أيكم أحسنُ عملاً وهو العزيز الغفور** ": هناك **العدم** وهناك **الوجود**. والوجود المخلوق منه الميت كالجماد، ومنه الحي كالنبات والحيوان. وتتجلى مظاهر الحياة في الحيوان أكثر من النبات ومن هنا سمي الحيوان حيواناً. ومن مظاهر وجود الحياة النمو والتكاثر، وهذا مشترك بين النبات والحيوان. أما الحركة الإرادية والإدراك فيتميز فيها الحيوان على النبات، هذا طبعاً فيما يظهر للإنسان. ويبدو أنّ الإدراك والحركة الإرادية تكون بعد نفخ الروح في الجسم الحي. والظاهر للإنسان أنّ الروح لا تُنفخ ولا تستمر إلا في جسم حي. ووجود الحياة في جسم ما لا يدل على وجود الروح حتى نلمس إدراكاً. والحياة سر والروح سر آخر، ولا يزال الإنسان – على الرغم من التطور العلمي الهائل– يقف حائراً أمام هذه الأسرار.

جاء في الآية ٢٨ من سورة البقرة:" **كيف تكفرونَ بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُميتكم ثم يُحييكم ثم إليه ترجعون**": والموت هنا قد يعني وجود الأجساد في عالم الجماد الميت، أي تراباً. وقد يعني وجود الروح قبل أن تتشكل الأجساد. فوجود الروح قبل خلق الأجساد الحية هو أيضاً صورة من صور الموت. وعندما تغادر الروح الجسد يموت هذا الجسد. فموت الإنسان يكون بمغادرة الروح الجسد ويُؤكّد لدينا

ذلك بموت الجسد. وقد تغادر الروح الجسد فيموت الإنسان على الرغم من بقاء الحياة في جسده أو في بعض أجزائه. كما يحصل عندما نُجمّد الأعضاء.

جاء في الآيات (٣٤،٣٥،٣٦) من سورة الدخان:" **إنّ هؤلاء ليقولون، إنْ هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بِمُنشَرين، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**": فهم ينكرون وجود الروح قبل وجود الجسد، أي يقولون بأسبقية المادة على الوعي والإدراك. ومن هنا موتهم القادم- في اعتقادهم،- سيكون أول موت، ولن يكون هناك عودة بعدها. فالحياة في اعتقادهم مرّة والموت مرة. وتروي الآيتان ٥٨ و ٥٩ من سورة الصافات ما سيكون يوم القيامة من تقريعٍ لمن أنكر الموتتين، فزعم بأسبقية المادة فلم يؤمن بالموتة الأولى ولم يؤمن بالحياة الثانية:" **أفما نحن بميّتين، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمُعذبين؟!**".

أما يوم القيامة فسيكون منهم الاعتراف الكامل بخطيئتهم، وسيُقرّون بأسبقيّة الوعي على المادة وأسبقية الموت على الحياة. جاء في الآية ١١ من سورة غافر:" **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل**": فالموت إذن مرتان والحياة مرتان. وهو الأمر المشترك بين كل البشر. وقد يُزاد للبعض في الموت، وبالتالي في الحياة، فتكون ثلاث مرّات، كما هو في قصة العزير، أو كما حصل عندما أحيا المسيح، عليه السلام، بعض الموتى بإذن الله. وكذلك الأمر عندما أحيا الله تعالى من صُعق من بني إسرائيل، فقد جاء في الآية ٥٦ من سورة البقرة:" **ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم**

تشكرون". فالأمر إذن لا يتعلق بعدد المرات بقدر ما يتعلق بحقيقة وجود الروح قبل وجود الجسد.

اللافت هنا أنّ وجود الروح قبل نفخها في الجسد الحي لا يجعلها مكلَّفة، بل ولا يُلحظ لها ذاكرة قبل نفخها في الجسد الدنيوي. وعندما نُفخت في الجسد الحي أصبحت مكلفة ولها ذاكرة، وتبقى كذلك طالما أنها تنفخ في الجسد الدنيوي؛ فهذا العُزير يموت مائة عام، كما تروي الآية ٢٥٩ من سورة البقرة، ثم يُبعثُ فنجد له ذاكرة تعود بعودة الروح إلى الجسد. وهذا ما يلحظ في الإنسان يوم البعث، أنه يقوم بكامل ذاكرته كما تصرّح الآيات الكثيرة. وكأنّ الروح تحتفظ بكل ذلك، وعندما تعاد إلى الجسد الصالح تعود بكامل وعيها وذاكرتها.

وقولهم:" **ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا...**"، يمكن أن يكشف لنا عن حقيقة اعترافهم بأسبقيّة الموت على الحياة، والذي يعني بالضرورة أنهم يعترفون بذنوبهم ويقرون بخطئهم الموجب للعقاب. فهم عندما كانوا لا يقرون بأسبقية الموت- والذي يعني أسبقية وجود الروح والوعي على الوجود المادي- فإنّ ذلك يعني أنهم يزعمون أنّ الوعي يأتي بعد وجود الأجساد، وهو في حقيقته – عند بعضهم- انعكاس المادة في الدماغ، وبالتالي يكون الإنسان ابن بيئته ويكون وعيه من صناعة إحساساته وبيئته المادية. وهذا يقودهم إلى القول بأنه مجبر مسير، وبالتالي غير مكلف وغير مسؤول، فما معنى وجود اليوم الآخر إذن؟!!

أما الإقرار بوجود الموت قبل الحياة فيعني أسبقية الروح والوعي على الوجود المادي للأجساد والحواس. وبمجرد الإحساس تنمو في النفس البشرية المبادئ العقلية والإدراكات الفطرية؛ كمبدأ السببية، ومبدأ عدم التناقض، وأمهات المبادئ الأخلاقية...الخ. وهذا يعني أنّ الإنسان قد ألهم ورُكّب فيه ما بسببه يصبح مسؤولاً ومكلفاً. وما الإحساس إلا الشرط المطلوب لنمو هذه الإدراكات الفطرية، كما هو أمر البذرةِ التي لا تنمو نبتةً حتى تتوافر لها الشروط، كالماء والحرارة...

جاء في الآية ٥٦ من سورة الدخان في حق أهل الجنة:" **لا يذوقونَ فيها الموتَ إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم**": أي أنّ أهل الجنة يخلدون ولا يموتون فيها إلا ما كان من موتةٍ أولى. وهذا يعني أنّ الموتة الأولى كانت في الجنة، أي أنّ الأرواح كانت في الجنة قبل أن تنفخ في الأجساد، والآن تعود إلى الجنة وهي في الأجساد الحية بكامل وعيها وذاكرتها. أما أهل الشقاوة فلا يعودون إليها لما كان من شقاوتهم بعد أن نفخت أرواحهم في الأجساد الدنيوية.

وكما تلاحظ فإنّ معاني الآيات الكريمة واضحة وجليّة ومتّسقة. وقد خاض كثير من أهل التفسير في محاولة توجيه معنى الآية ٥٦ من سورة الدخان، لظنّهم أنّ الموتة الأولى هي الموتة بعد الحياة الدنيا. وقد قادهم هذا التوجه إلى الوقوع في إشكالات كثيرة يصعب حلها. وكما تلاحظ لا إشكال في الآية الكريمة، لأنه لا يوجد ما يمنع من أن يكون مستقر الأرواح، قبل نفخها في الأجساد الدنيوية، في الجنة. وهذا

ينسجم مع قول جمهور أهل السنة والجماعة بأنّ الجنة كائنة مخلوقة. أما من شذ فذهب إلى القول بأنّ الجنّة غير مخلوقة، وستخلق في المستقبل، فسوف يستشكل الآية الكريمة.

أُمّة الرحمة المكتوبة

جاء في الآيتين ١٥٦ و ١٥٧ من سورة الأعراف:"... **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ** ...".

تخيّرَ موسى، عليه السلام، من قومه سبعين رجلاً لميقات الله تعالى فأُهلكوا بالرجفة. ولا تُبيّن لنا آيات سورة الأعراف سبب إهلاكهم، ولكن يمكن معرفة ذلك بالرجوع إلى سورة البقرة، حيث يشير سياقا السورتين إلى أنّ سبب الإهلاك هو ما جاء في الآية ٥٥ من سورة البقرة:" **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**". هنا وقف موسى، عليه السلام، يدعو ويستعطف، وهذا ما تُصرّح به الآية ١٥٥ وجزء من الآية ١٥٦ .

قبل ما يقارب الـ ١٨٠٠ سنة من نزول رسالة الإسلام، وعند جبل الطور، ترى سبعين من بني إسرائيل موتى، وقد أُخذوا بالرجفةِ الصاعقة. وترى رسول الله موسى يقف وحده يدعو ويستعطف ويسأل الله تعالى عفوه ورحمته. في مثل هذا الموقف المهيب يأتي الرد الإلهي:" **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**".

وتشير الآيات من سورة البقرة إلى أنّ الله تعالى قد استجاب لعبده موسى، عليه السلام، فأعاد السبعين إلى الحياة:" **ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**".

والمسألة اللافتة هنا أنّ الرد الإلهي، في مثل هذا الموقف المهيب، جاء ليذْكُرَ أجيالاً من المؤمنين يأتون بعد آلاف السنين:

"... **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ** ...": فكما أنّ إرادته سبحانه وتعالى مطلقة لا يقيدها إلا هو، فرحمته أيضاً واسعة تتسع لكل المخلوقات. وقد شاء سبحانه وتعالى أن يكتب على نفسه الرحمة لأمةٍ قادمةٍ أبرز ما يميزهم أنهم يؤمنون بآيات الله، ويتّبعون محمداً، صلى الله عليه وسلم، ويتقون الله، ويؤتون الزكاة. وهذه الأمة تتبع النبي الذي تأتي أوصافه في التوراة وفي الإنجيل الذي سينزل على عيسى، عليه السلام، والذي سيأتي مصدقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسولٍ من بعده اسمه أحمد.

هذه بشرى عظيمة لهذه الأمة أن تعلم أنها كانت حاضرة في ذاكرة الأمم السابقة، وأنها جُعلت مثالاً يحتذى واستحقت، دون الأمم كلها، أن تُكتب لها الرحمة. فليعلم السبعون، الذين هم خيار بني إسرائيل، ليعلموا بعد بعثهم وإحيائهم، أنّ رحمة الله التي وسعتهم قد كُتِبت لأمة قادمة تتحلى بصفات عليهم أن يقتدوا بها لتُكتب لهم الرحمة.

فإذا كان الاقتداء يكون بمن مضى أو بمن حضر، فإنّ الاقتداء هنا يكون بمن هو قادم بعد قرون متطاولة. إنها الأمة التي يتحقق فيها

النجاح البشري. إنها الأمة التي تأتي كخلاصة للتجارب البشرية. إنها الأمة التي أولها خير أمةٍ أخرجت للناس، وآخرها خلافة راشدة على منهاج النبوة. إنها الأمة التي تُختم عندها الرسالات، فتقوم بما قامت به الرسل من حملٍ لدين الله وتبليغٍ لرسالته. إنها الأمة القادرة على أن تُصحح مسيرتها وأن تستدرك على أخطائها. الأمة التي ترفض الظلم وتأبى الاستعباد وتناهض العدوان. أمّة العلم والوعي والمعرفة. أمة إذا كَبتْ ما أسرع ما تقوم. أمّة لا تموت فيها بذرة الخير، كلما سقاها دعاة الحق أنبتت وأثمرت البركات...هي إذن أمة الرحمة المكتوبة.

الإيمان والعمل

جاء في الآية ٩٣ من سورة المائدة:" **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ".

إذا اتقى المؤمن المحارم وعمل الصالحات فلا يضره بعد ذلك عمل، طالما أنّه يتحرى الحلال ويمارس العمل الصالح. وتكون التقوى في الدرجة الأولى بالابتعاد من المحرمات والمكروهات، أي بالابتعاد عن عوامل الهدم قبل الاشتغال بالبناء. أما العمل الصالح فهو في الحقيقة بناء وارتقاء. ويكتسب كل ذلك قيمة في الشرع عندما يقوم على أساس من الإيمان الصحيح.

لقد أشكلت هذه الآية على كثير من أهل التفسير، ومنهم سيد قطب، رحمه الله، عند تفسيره لقوله تعالى:" **إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا**"، بعد قوله:" **إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**". والذي نراه أنْ لا إشكال، لأنّ الآية الكريمة تكشف لنا عن حقيقة العلاقات بين الإيمان والعمل الصالح. فمعلوم أنّ جمهور أهل السُنّة والجماعة يُعرّفون الإيمان بأنه: تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعملٌ بالأركان. وقد خالف أبو حنيفة، رحمه الله، فاعتبر أنّ الإيمان هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان. أي أنّ العمل الصالح عند أبي حنيفة لا يدخل في ماهية الإيمان.

لا شك أنّ الإيمان تصديق بالدرجة الأولى، وينبني على هذا التصديق فعل وترك، وهذا واضح في قوله تعالى:" **إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا**

الصَّالِحَاتِ". وعندما يكون الكف عن المحارم وعمل الصالحات نابعاً عن الإيمان، وعندما يصبح عادة وديدناً للإنسان، تنشأ عن ذلك علاقة جدليّة ارتقائية؛ أي أنّ العمل الصالح الذي يصدُر عن إيمان يقوي هذا الإيمان، ثم لا يلبث هذا الإيمان القوي أن يقود إلى عمل أصلح،... وهكذا في مسيرة ارتقائيّة. من هنا قال جمهور أهل السُنّة والجماعة:" الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي".

عندما يحصل مثل هذا الارتقاء لا تعود تلاحظ خطوطاً فاصلة بين حقيقة الإيمان وحقيقة العمل. وحتى تتضح الفكرة نضرب مثالاً بالأشخاص الذين يتعلمون الطباعة على الآلة الكاتبة، حيث يلزمهم معرفة الحروف ومواقعها على لوحة المفاتيح. وعندما يمارس المبتدئ عملية الطباعة يكون حاضر الذهن مفتوح العيون فلا يضغط على مفتاح الحروف حتى يتعرف عليه. ومن هنا تكون العملية في البداية في غاية البطء والتكلّف. وبعد حين، ونتيجة للممارسة الطويلة ذهنياً وعملياً، نجد أنّ متقن الطباعة لا يعود يفكر في مواقع الحروف ولا يعود يتكلف الأمر، بل يحصل **اندماج بين الفكرة والسلوك**، ويصبح الفعل سليقة، ولا نعود نلاحظ خطوطاً فاصلة بين الفكرة والسلوك.

فالآية الكريمة تتحدث إذن عن الحالة الارتقائيّة الاندماجيّة التي تنتج عن ممارسة العمل الصالح على أساس من الإيمان.

فالبداية إذن:"**اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا**"، ثم:" **اتَّقَوْا وَآمَنُوا**"، أي أنه لم يعد هناك فصل بين حقيقة الإيمان والعمل، بل إنّ الأمر يصل في مسيرة الارتقاء إلى حالة هي أرقى من **الإيمان**، ألا وهي **الإحسان**، حيث

يكون التصديق أقرب إلى عالم المشاهدة، وحيث يكون العمل في أبهى صورة ويصدر عن المحسن من غير فكر ولا رَوِيّة:" **ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا**".

إنّ أمثال هؤلاء إذا ما استشكل عليهم حكم شرعي، ولم يصل بهم فقههم إلى ترجيحٍ ظاهر يكفيهم عندها فتوى القلوب، تماماً كما هو الأمر عندما ننظر بأكثر من عين وتكون لدينا صورة واحدة.

مسألة في التوبة

جاء في الآيتين ١٧ و ١٨ من سورة النساء:" **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**".

الذي دفعنا للكتابة في تفسير الآيتين الكريمتين ما وجدناه عند عامة المفسرين من ظنٍّ بأنّ الحديث هنا عن التوبة المقبولة والتوبة غير المقبولة، وأنّ التائبين الذين تُقبل توبتهم هم فئة واحدة، وأنّ الذين لا تقبل توبتهم هم فئة أخرى. في حين أنّ الناس الذين تُقبل توبتهم هم في الحقيقة فئتان: فئةٌ أوجب الله تعالى على نفسه أن يقبل توبتهم، وفئة تُركَ أمر قبول توبتهم لمشيئته سبحانه.

" **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّه** " : لاحظ عبارة:" **على الله** "، فالله تعالى أوجب على نفسه تكرماً وفضلاً أن يتوب على من توفّرَ في توبته شرطان هما:

" **يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**": كطغيان شهوة أو غضب أو عن طيش ورعونة... من غير أن يكون هناك استخفاف بأوامر الخالق سبحانه، ومع إدراكهم لخطئهم وسوء فعلهم.

" **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** ": أي يُسارعون للإنابة ولا تطول بهم الإقامة على المعصية. فأمثال هؤلاء أوجب الله سبحانه وتعالى على نفسه أن يقبل ندمهم وتوبتهم، فليطمئنوا فقد قُبِلت توبتهم.

أما الذين لم تتوفّر في توبتهم هذه الشروط، فليعلموا أنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر، أي ما لم يكن في النزع الأخير. وأمثال هؤلاء لا تكون التوبة عنهم يقينيّة، بل هي إلى الله تعالى المطلع على حقيقة قلوبهم، وصدق ندمهم ورغبتهم في الرجوع إلى ربهم. وعليهم أن يُكثروا من الطاعات بعد أن ينزعوا عن المعاصي، فلعل الله تعالى أن يقبل توبتهم.

فالفئة الأولى إذن وجبت لهم التوبة وقُبلت يقيناً. والفئة الثانية فُتحت لهم أبواب التوبة ولم تُغلق في وجوههم، فليتوبوا لعل التواب الرحيم أن يتوب عليهم، فقد أخبر سبحانه وتعالى على لسان رسوله، عليه السلام، أنه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

" **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ**": هؤلاء ليس على الله أن يتوب عليهم؛ لا من جهة ما أوجبه على نفسه، ولا من جهة ما فتحه من أبواب التوبة. ولكن لا يعني ذلك أنه لا يغفر لبعضهم، لما يعلمه من حقيقة إيمانهم وصدق محبتهم لله ورسوله، أو غير ذلك مما لا نعلمه ويعلمه اللطيف الخبير. فقد جاء في الآية ١١٦ من سورة النساء:" **إِنّ اللهَ لا يَغفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ ويَغفِرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ...**"، فليس كل من مات على معصية لم يتب منها عذب من أجلها؛ فهناك الميزان، وهناك الشفاعة، وهناك

الشهادة،.. وهناك وهناك. ومعلوم أنّ هذه الآية تتحدث عن الآخرة وما بعد الموت. أما في الدنيا فباب التوبة مفتوح، لأنّ الله يغفر الذنوب جميعاً، انظر الآية ٥٣ من سورة الزمر:" **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ".

ولو تقوّل علينا

النبوة اصطفاء ربّاني لعبد من عباد الله، ورحمة منه، سبحانه تعالى، يهدي بها من يشاء. وقد بدأت سلسة الأنبياء المباركة بآدم، عليه السلام، وخُتمت بمحمد، صلى الله عليه وسلم. وختم النبوة لا يعني استحالة وجود من يدّعيها، بل إنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بما سيكون من ادّعاءٍ وافتراءٍ على الله سبحانه من قبل أدعياء النبوة. وقد قرأنا لبعض أتباع دَعِيٍّ من الأدعياء يقولون:" لو كان نبينا غير صادق في دعواه لأهلكه الله تعالى كما جاء في سورة الحاقة". من هنا رأينا أن نعود إلى الآيات الكريمة من سورة الحاقّة لنلقي بعض الضوء، فلعلنا نزيل بذلك بعض ما يمكن أن يعلق في أذهان من استمع إلى مثل هذه الشبهة.

جاء في الآيات ٤٤-٤٧ من سورة الحاقّة:" **ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين**".

التقوّل: هو نسبة قولٍ إلى من لم يقله. والأقاويل افتراءات تتعلق بالأقوال المنسوبة إلى الغير. والذي يهمنا في هذا المقام هو توضيح أنّ المقصود بهذه الآية هو الرسول الحق، وليس كل من يدّعي الرسالة؛ فعندما يرسل الله تعالى رسولاً يؤيّده بالأدلة والبراهين ليقيم الحجة على الناس. وبعد أن تُقام الحجة يقوم الرسول بإبلاغ الرسالة إلى

المؤمنين الذين يُصدّقون الرسول في كل أقواله، لأنّه رسول المَلِك العظيم، الذي لا يخطر ببال أحد أن يأذن بتحريف كلامه وإضافة الأقوال المكذوبة إلى مقامه العلي، من قِبل من اختاره واصطفاه ليكون حجة على البشر.

من هنا جاء مفهوم العصمة مستنداً إلى بداهة العقول قبل استناده إلى الدليل النصّي. أمّا النصوص فكثيرة، منها: " **سنقرئك فلا تنسى** ..."، و " **لا تحرك به لسانك لتعجل به، إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إنّ علينا بيانه**"، و " **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**". ومنها أيضاً هذا النص من سورة الحاقة، الذي يُصرّح بأنّ تحريف الكلام من قِبَل الرسول – لو حصل افتراضاً – يُحتّم أن تُعجّل له العقوبة الحاسمة، رحمة بالعباد وتنزيهاً لمقام الربوبيّة. ويقارب هذا المعنى ما جاء في الآية ٧٤، ٧٥ من سورة الإسراء، خطاباً للرسول، عليه السلام:" **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا، إذاً لأذقناك ضعفَ الحياةِ وضعفَ المماتِ ثمّ لا تجد لك علينا نصيرا**".

أمّا مدّعي النبوة والرسالة فلا يشمله هذا التهديد، وكذلك كل مُتقوّل نَسَب إلى الله تعالى ما لم يقله. فأولئك شأنهم مختلف وعقوبتهم مختلفة، وليس بالضرورة أن تُعجّل لهم العقوبة فتكون فوريّة وحاسمة، لأنّهم **لم يمتلكوا البرهان من الله ولم تقم لهم الحجة على العباد**، ولم يخونوا الأمانة العظيمة بعد معرفة الحقيقة. وما هم في الواقع إلا فتنة من الفتن الكثيرة التي يُميّز الناس بواسطتها بين الخبيث والطيّب. وأمثال هؤلاء لا يملكون الحجة والبرهان، بل يعرفهم أهل الصدق

بسيماهم، ولا ينخدع بهم إلا من أظلمت قلوبهم وعقولهم بظلمات معاصيهم وانحرافاتهم.

فإملاء الله تعالى للمفتري لا يكون دليلاً على صدقه، انظر قوله تعالى في الآية ١٧٨ من سورة آل عمران: " **ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب مهين**". وكذلك لا تدل كثرة الأتباع والمصدّقين على صدق المدّعي، بل لو أطبق أهل الأرض كلهم جميعاً على القول بصدق المدّعي لا يكون صادقاً حتى يأتي بالبرهان الذي تخضع له العقول والقلوب. وتاريخ البشرية وواقعها المعاصر يشهد بذلك، بل إنّ بعض الأنبياء لم يتّبعه إلا الرجل والرجلان، في حين نجد أنّ بعض أئمة الكفر قد اتبعتهم الملايين من البشر. نقول هذا حتى لا نقع، نحن المسلمين، فيما يقع فيه الكثير من أهل العقائد المختلفة من أخطاءٍ في منهج الاستدلال وإقامة الحجة.

فوق الذين كفروا

جاء في الآية ٥٥ من سورة آل عمران:" **إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ...".

تنص الآية الكريمة على أنّ وجود أتباع عيسى، عليه السلام، سيستمر إلى يوم القيامة. وقد التبس ذلك على بعض أهل التفسير فذهبوا إلى القول بأنّ قانون الفوقيّة المنصوص عليه في الآية الكريمة يخص النصارى في مقابلة اليهود. وهذا فهم عجيب يتناقض مع أساسيات العقيدة الإسلامية والتي هي عقيدة المسيح، عليه السلام، وعقيدة الأنبياء والرسل من لدن آدم حتى محمد صلوات الله عليهم جميعاً. فلا يجوز لنا إذن أن نعتبر النصارى اليوم أتباعاً للمسيح عليه السلام.

جاء في الآية ١٤ من سورة الصف:" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ".

يُفهَمُ من الآية الكريمة أنّ دعوة عيسى، عليه السلام، قد نجحت لأنّ الفكرة أصبحت ظاهرة، ولا تكون الفكرة ظاهرة حتى تكون معلنة وغالبة. وينبغي أن لا نخلط بين ظهور الفكرة والظهور المادّي المتمثل بالظهور العسكري مثلاً، لأنّ العبرة بظهور الفكرة وإشراقها في النفوس. والسلطان الحقيقي هو سلطان الفكرة، لأنها المحرك

الأساس للأفراد والمجتمعات؛ فلو نظرت اليوم إلى تسلط اليهود على الفلسطينيين في الأرض المقدّسة لوجدت أنّ السلطان الحقيقي هو سلطان الإسلام، لأنّه هو الموجه والمحرك للناس في فلسطين، ولوجدت أنّ الفكرة الصهيونية تعاني من الانحسار والتلاشي في نفوس الكثيرين من اليهود.

جاء في الآية ١٢٣ من سورة النحل:" **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ". وجاء في الآية ٩٥ من سورة آل عمران:" **قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**". وجاء في الآية ١٢٥ من سورة النساء:" **وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ".

فنحن إذن من أتباع إبراهيم عليه السلام، وهذا لا يتناقض مع كوننا أتباعاً لمحمد، صلى الله عليه وسلم، لأنّ دين الله واحد، وهي مسيرة واحدة، ولواء واحد مذ رفعه آدم، عليه السلام. أما اختلاف الشرائع فمردّه إلى اختلاف أحوال الأمم والشعوب. بل أنت تجد في شريعة الإسلام اختلافاً في الأحكام الشرعيّة يناسب اختلاف الأحوال؛ فصلاة المسافر تختلف في بعض أحكامها عن صلاة المقيم، وكذلك الأمر في الصيام ... الخ.

فإذا كان محمد، عليه السلام، متّبعاً لملة إبراهيم فلا شك أنّ عيسى، عليه السلام، هو أيضاً مُتّبع لملة إبراهيم، عليه السلام. وإذا كنا أتباعاً لمحمد وإبراهيم، عليهما السلام، فإننا أيضاً أتباع لعيسى ولغيره من

رسل الله الكرام، صلوات الله عليهم جميعاً. نقول ذلك لنبين أنّ قوله تعالى:" **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** "، يُقصَد به أهل الإيمان الصحيح الذين لم ينقطع وجودهم في الأرض بعد عيسى، عليه السلام، واستمروا يحملون لواء الحق والحقيقة حتى بُعِث الرسول، صلى الله عليه وسلم. وبذلك تستمر مسيرة الحق إلى يوم القيامة. جاء في الحديث الصحيح:" **لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين...**"، وهذا كلام صريح باستمرار ظهور الفكرة إلى أن يرث الله تعالى الأرض وما عليها.

الدارس لبعض ما كُتِب حول القرون الستة، من عيسى إلى محمد، عليهما السلام، يلاحظ أنّ هناك حركة ظاهرة كانت تستعلن بفكرتها الحقة، ومن ذلك الجماعة المسيحية المسماة بالموحدين، وكذلك أصحاب الأخدود. بل إنّ قصّة إسلام سلمان الفارسي تُبين لنا حقيقة استمرار الرسالة الحقة؛ فهذا سلمان، رضي الله عنه، يتتلمذ على راهب، وعندما تحضر هذا الراهب الوفاة يوصي سلمان براهب آخر يلحق به ويتتلمذ عليه، وهكذا حتى يوصيه الأخير بأرضٍ ذاتِ نخيل سيظهر فيها النبي الخاتم، صلوات الله عليه. ويبدو أنّ إسلام هذه الجماعات الحاملة للحقيقة أدّى إلى انصهارها في الأمّة الإسلامية وبالتالي اندثار أخبارها، على خلاف الأمر في الجماعات النصرانية التي لم تُسلِم.

جاء في الآيتين ١٣٩- ١٤٠ من سورة آل عمران:" **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ**

الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ..."، معلوم أنّ هذه الآيات من سورة آل عمران جاءت تعقيباً على ما أصاب المسلمين في معركة أُحُد؛ فما ينبغي لمن استعلى بالفكرة الإيمانية الحقّة أن يضعف لمجرد هزيمة لحقت به في عالم الأشخاص، فما ذلك إلا قانون اقتضته الحكمة الربانية التي تُخرّج أتباعها وتنصر الحقيقة. فالسيطرة المادية للكفر في مرحلة من المراحل يجب أن لا توهن من الفكرة الحقة التي تجعل من صاحبها الأعلى دائماً وفي كل الأحوال؛ فهذا بلال بن رباح، رضي الله عنه، ينتصر بفكرته وهو مطروح فوق الرمال الملتهبة يعاني جسده من سياط سيده الذي كان يشعر بعمق هزيمته أمام خادمه المستعلي بفكرته.

جاء في الآية ٧٦ من سورة يوسف:" **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** "، بذلك يتبيّن أن الفوقيّة لا تعني دائماً فوقيّة ماديّة. ولا شك أنّ همّ عيسى، عليه السلام، كان دائماً الفكرة وانتصارها، وفوقيتها على الأفكار المناقضة لها. لذلك كان من المناسب أن يُطَمأن، عليه السلام، عند رفعه، فيُقال له:" **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ". ثم يأتي الوحي الكريم فيبرز لنا نحن المسلمين هذه الحقيقة، والتي هي قانون ربّاني يستمر إلى يوم القيامة، فأين مصداق ذلك في الواقع؟!

تتجلى فوقيّة الفكرة أولاً بشعور المؤمن بتفوقها على غيرها من الأفكار المناقضة لها، وثانياً بإحساس الكافرين بضعف فكرتهم

وقصورها وعجزها عن المواجهة، وذلك عندما تكون ساحة المعركة هي العقول والقلوب والفطرة السويّة.

وإليك بعض مؤيدات تفوّق الفكرة الإسلامية:

١. على الرغم من تفوق الغرب علميّاً وتكنولوجياً واقتصادياً وعسكرياً، وعلى الرغم من كونه قبلة العالم في العلم والمعرفة، إلا أننا نجد أنّ التحول نحو الفكرة الإسلاميّة من الظواهر المتصاعدة في المجتمعات الغربية. في المقابل نجد أنّ المجتمعات الإسلامية تُعجَب بمدنيّة الغرب ولكنها في المقابل باتت لا تقبل فلسفته. من هنا لا نلحظ أي تحول نحو العقيدة المسيحية، على الرغم من توافر الدواعي الكثيرة المشجعة على ذلك.

٢. تُعتبر فرنسا الدولة الرائدة في تاريخ الديموقراطيات الغربية، حيث كانت الثورة الفرنسية المثال والقدوة لجميع الأوروبيين. وعلى الرغم من ذلك نجد أنّ الجمهورية الفرنسيّة العريقة تضيق ذرعاً بعدد قليل من الطالبات الصغيرات اللواتي يلبسن الحجاب المجتزأ والمتمثل بغطاء الرأس، فتشهر سلاح القانون في وجوههنّ البريئة تحت زعم أنّ ذلك من أجل حماية القيم الديموقراطية. نعم، فمن أجل حماية قيم الديموقراطية، لا بد من الانقضاض على أبسط مبادئ الديموقراطيّة!! وعندما نعلم أنّ المَدْرسة فرنسية، وأنّ المُدرّس فرنسي، وعندما نعلم أنّ الطالبات صغيرات يمكن التأثير عليهن واستيعابهن ومسح أدمغتهن في اتجاه الفكرة الغربية، عندما نعلم ذلك كله ندرك أنّ الجمهورية الفرنسية بعظمتها وعراقتها قد باتت تشعر بالدونيّة في مواجهة الفكرة

الإسلاميّة، وباتت مدركة لعجزها عن التأثير حتى في فكر الطفل المتلقي. وأدّى هذا الشعور بالعجز والدونيّة العقائديّة إلى الانقضاض على أهم مبادئها، ولم تبال أن كشفت عورتها أمام العالم. ويمكننا أن نفهم دوافع مثل هذه التصرفات، والتي لا يمكن أن تكون تصرفات الواثق الذي يشعر بتفوقه تجاه الآخرين. أما رفع الصوت والتغنّي بالقيم الغربية فلا يدل إطلاقاً على ثقة الغرب بقوة فكرته وأناقتها، بل إنّ الأمر على العكس من ذلك تماماً.

٣. المستقرئ للفكر الاستشراقي والتبشيري الغربي يجد أنّ الاهتمام الأول عندهم هو بالفكرة الإسلاميّة. ويدهشك الكم الهائل من الإنتاج الفكري الذي يهدف إلى تشويه الفكرة الإسلاميّة دون غيرها من الأفكار. وهذا يدل على شعورهم بقدرة الفكرة الإسلاميّة على اختراق حصونهم الفكريّة. ويندر أن تشعر بموضوعيّة هؤلاء عندما يتحدثون عن الإسلام. أمّا إذا كان حديثهم عن دين غير الإسلام فإنك تلمس الموضوعيّة لديهم. وهذا يشير إلى شعورهم العميق بتفوق الفكرة الإسلاميّة.

الضالّون المكذبون

هناك أكثر من دافعٍ للتكذيب، وأكثر المكذبين انحرافاً من كان تكذيبه عن ضلال. وهناك أكثر من صورة للضلال، وأكثر الضالين انحرافاً من أضاف إلى ضلاله التكذيب. جاء في الآية ٥١ من سورة الواقعة:" **ثمّ إنّكم أيها الضالونَ المكذّبون**"، وجاء في خواتيم السورة:" **وأمّا إنْ كانَ من المكذّبين الضالّين، فنُزُلٌ من حميمٍ، وتَصْلِيَةُ جحيم، إنّ هذا لَهُوَ حقُّ اليقين...**".

قد يكون الضلال عن جهل وعن غير قصد ولا يؤاخذ صاحبه، كمن يضل الطريق فلا يصل إلى هدفه مع رغبته الكاملة في الاهتداء والوصول. وقد يكون ناتجاً عن مقدمات قدّمها المرء فكان الضلال هو الثمرة المشؤومة للسلوك غير السوي. وقد يكون ذلك نتيجة انحراف النفس الغارقة في المعاصي، فلا يعود الشخص راغباً في الهداية، بل لا يعود قادراً على إدراك أنه يسير في طريق الضلال. والأول تجده طالباً للحقيقة حريصاً عليها، فما أسرع ما يهتدي. والثاني تجده مستشعراً لما آلت إليه أعماله، وأمثال هذا ترجى له الإنابة. أما الثالث فمصاب بالانعكاس النفسي، فيرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقاً، فما أبعد ما يهتدي.

إذا كان الأول معذوراً في ضلاله فلا يعذر عندما يُضيف إلى ضلاله التكذيب. أما الثالث فيكون مكذباً للحق في أغلب أحواله. وما نرمي

إليه هنا أن نبين حقيقة الخلل المنهجي الي يقع فيه الضال عندما يُكذِّب الحق. والذي يُكذِّب عن ضلال لا يكفيه البيان والبرهان، بل قد يكون التقريع والتهديد والوعيد من أنجع الوسائل لرده إلى الصواب أو ردعه عن التمادي، كما هو الأمر عندما يُطرق القضيب المعوج ليستقيم. والمتدبر للقرآن الكريم يجد أنه كثيراً ما يخاطب أمثال هؤلاء بما يئز النفوس ويخلع القلوب، فيظن من لا علم له ولا خبرة بأنّ خطاب العقول مع أمثال هؤلاء أجدى وأنفع. واستقراء واقع الناس يكشف لك عن نجاح مثل هذا الخطاب، كيف لا، ألا يعلم من خلق؟!

الناس ثلاثة: الأول لديه دليل الإثبات فيقول نعم، والثاني لديه دليل النفي فيقول لا، والثالث لا يملك الدليل على الإثبات أو على النفي فيقول لا أدري.

وهذا هو المنطق السوي. وعلى الرغم من وضوح هذا في العقل إلا أنك تُفاجأ بأنّ الكثير من الناس يسارعون إلى النفي أو الإثبات وهم لا يملكون الدليل. ومن أمثلة ذلك ما كنا نلحظه من سلوك الملاحدة ومنهجيتهم غير السوية؛ فقد كانوا يقولون: لا إله والحياة مادّة. وكنا نسألهم كيف عرفتم ذلك؟! فيقولون: لا دليل على وجود الإله، وهم في الحقيقة يقصدون أنهم لم يروه رأي العين. فكنا نقول لهم جدلاً: إذا عجزنا عن تقديم الدليل على الوجود فما دليلكم على عدم الوجود، فأنتم تقولون: لا إله؟! فقد كانوا يظنون أنّ عدم وجود الدليل على الإثبات هو دليل النفي. فكنا نقول لهم: أنتم الفئة الثالثة من الناس التي ينبغي أن تقول لا أدري، وبعد أن تُقرّوا بذلك يصبح من واجبنا أن نقدم لكم

الدليل. فالضال الذي يُضيف إلى ضلاله التكذيب يكشف عن حقيقة سلطان الشهوة أو المصلحة أو الكبر...على عقله. وأمثال هؤلاء لا تنفعهم الحجة والبرهان، بل يلزمُ أن تبحث عن حقيقة المرض الذي تدل عليه العوارض حتى تتمكن من تقديم العلاج.

والمشركون العرب عند نزول الرسالة كانوا يُقرّون بأنّ الله تعالى هو خالقهم وهو خالق السماوات والأرض؛ انظر الآية ٣٨ من سورة الزمر:" **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرضَ ليقولُنَّ الله...**"، وانظر الآية ٨٧ من سورة الزخرف:" **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنى يُؤفكون**". وعلى الرغم من هذا الإقرار، الذي يُسجّله عليهم القرآن الكريم، وعلى مسمعهم، نجدهم يُصرّحون بإنكار اليوم الآخر. فكيف عرفوا أن لا بعث ولا حساب، وما دليلهم الذي حملهم على الجزم بالنفي؟! والعجيب أنّ أهل الإلحاد في عصرنا يدركون، أكثر من غيرهم من الأمم السالفة، بعض حقائق عظمة الخلق وإبداعه ثم هم ينكرون بعث الأجساد التي بليت. وتكتشف مدهوشاً أنّ إنكارهم هذا يحملهم عليه عجزهم عن بعث الأجساد بعد موتها، فقد قاسوا الخالق على المخلوق. فكأنّهم يقولون: ما يُعجزنا يستحيل أن يكون!! ومن هنا نجدهم، مثلاً، ينكرون ويستهزئون عندما يُذكر لهم بعض أخبار معجزات الأنبياء. ومثل هذا الموقف الطفولي ما كان ليكون لولا أنّ التكذيب أساسه الضلال.

وليقترفوا ما هم مقترفون

جاء في الآيتين ١١٢، ١١٣ من سورة الأنعام:" **وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ غُروراً، ولو شاء ربك ما فعلوهُ فذرهم وما يفترون، ولِتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرضَوهُ ولِيَقترفوا ما هم مُقترِفون**".

" **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً**": فهو إذن قانون لا يتخلف، كان في الماضي وسيكون في المستقبل. ومعلوم أنّ العداوة في الحقيقة ليست لشخص النبي وإنما للفكرة التي جاء بها. من هنا لا بد أن يبقى هناك من يعادى الفكرة الإيمانية ويمكر لها، ولمثل هذا القانون الاجتماعي حكمة.

"**عدواً شياطين الإنس والجن**": فهناك إذن شياطين من الإنس وشياطين من الجن. والشيطان هو المتمرد الذي مرد على الشر. وأنت تجد من الإنس من سخّر حياته للباطل فأصبح معادياً للحقيقة الإيمانية، فلا يطيق وجودها ولا يتصور انتصارها وشيوعها بين الناس. مثل هذا هو الشيطان وليس كل عاصٍ. فمجرد ارتكاب المعصية إذن لا يجعل الإنسان شيطاناً، بل إنّ الشيطان هو من أصبحت المعصية جزءاً من كينونته وأصبحت ديدنه، بحيث تستهويه الانحرافات وتستفزه الطاعات.

" **شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول**": ومعلوم في الدين أنّ لشياطين الجن القدرة على الوسوسة الخفيّة.

والإنسان اليوم أقدر على تصور المسألة بعد أن أصبح قادراً على أن يبث الصور والأصوات ويعود فيلتقطها على موجات محددة. ومعلوم أنّ الدماغ البشري أكثر تعقيداً من كل ما عرفناه من أجهزة التقاط. فشياطين الجن قادرة على أن توحي للناس عن طريق الوسوسة. أما شياطين الإنس فأقدر على طرح الباطل وأقدر على التسلل الخفي لمسح الأدمغة وغرس الأفكار واستنباتها.

"**يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً**": فشياطين الجن تجهد في تضليل الإنس والجن. وشياطين الإنس تجهد وتجتهد في تضليل الإنس، ولا شك أنهم يفعلون ذلك في الجن أيضاً لما ورد:".. **إنه يراكم هو وقَبيلُه من حيث لا ترونهم...**" الأعراف:٢٧، فالجن على اطلاع بواقع الإنس وما يصدر عنهم. وأكثر ما يكون الإيحاء مؤثراً بين الشياطين بعضهم مع بعض، لما يكون من سهولة استقبال وتقبّل. وبما أنهم يوسوسون بالباطل فيحتاج ذلك إلى تزيين وتلوين حتى لا تنكشف حقيقته. واليوم أصبح مثل هذا التزيين والتسويق للأفكار والضلالات عِلماً يدرّس؛ فكم من فكرة ضعيفة متهافتة تجلّت بأثواب الخداع التي تغر، كما تجلّت العروس الشمطاء بألوان الزينة والبهرج فخالها الناس ملاكاً يمشي على الأرض.

"**ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون**": فمقاليد الأمور بيد الواحد القهّار، ولحكمة أرادها الحكيم العليم تركهم يفعلون ذلك، فاتركهم لافتراءاتهم، التي تكفي وحدها لتحقيق هزيمة باطلهم وانتصار الحق الذي أنت عليه. فأقصر طريق لتحقيق انتصار الحق هو الاهتمام

بعرض الحقيقة والتبشير بها والانصراف إلى تعريف الناس بحقائق الدين الحق وتعليمهم وتربيتهم. أما صرف الجهود في الإبحار في لجج بحور أكاذيبهم وافتراءاتهم فتضييع للوقت وإهدار للجهد، فهناك أولويّات ينبغي أن تراعى من أجل الوصول إلى الأهداف، فالتعريف بالفكرة مقدّم على تفنيد ادعاءات المبطلين.

"**ولتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة**": والإيمان بالآخرة يعني الإيمان بباقي الأركان؛ فالإيمان بالله قد لا يستلزم بالضرورة الإيمان باليوم الآخر، ولا يستلزم الإيمان بباقي الأركان. أما الإيمان باليوم الآخر فيعني الإيمان بالله وبباقي الأركان. وعدم الإيمان باليوم الآخر يعني أنّ أفق الإنسان هو أفق مادي دنيوي. ومثل هذا الاعتقاد يُشكل العقلية والمنهجية والنفسية، وينعكس بقوة في المواقف والسلوك. وأمثال هؤلاء يصغون بشدة إلى افتراءات الشياطين من الإنس والجن. وهذا أمر ملحوظ في واقع الناس. والإصغاء هو المرحلة الأولى، وهو ينبع عن نفس أسرتها الدنيا ومادياتها وشهواتها. كيف لا، وقد انتفى الإيمان الأخروي الذي يقي الإنسان من تأثير السلطان المادي للدنيا؟!

"**ولِيَرضَوهُ...**": والرضا هو المرحلة الثانية بعد الإصغاء الذي يدل على وجود الميل والاستعداد للتأثر والأخذ. فالرضا يشير إلى الأخذ والقبول والارتياح لما عرض وزيّن. فأصبح الباطل المتشرّب جزءاً من الكينونة. وهذا مقدمة للمرحلة الثالثة، وهي مرحلة الاقتراف.

"**وليقترفوا ما هم مقترفون**": فالإيمان المادي الدنيوي مقدمة لوجود الميل المؤدي للإصغاء. والإصغاء مقدمة للقبول والرضا والتشرّب.

وهذا بدوره يؤثر في السلوك. بل إنّ السلوك هو نتيجة حتمية للفكر المتغلغل في العقل والقلب. وإذا حصل السلوك الناتج عن القبول والرضا بالأفكار الباطلة، فسوف يكون ذلك بداية الهزيمة للفكر المفترى، لأنّ **انعكاس الفكر في الواقع والسلوك يكشف عن حقيقته الزائفة**. وقد يصعب على غالبية الناس أن يقيّموا المبدأ وهي عالم الفكر النظري، فإذا انعكس في عالم الواقع العملي رآه الجميع على حقيقته. لذلك سيدرك الناس الحقيقة التي يمثلها أهل الإيمان بفكرهم وسلوكهم الناتج عن هذا الإيمان. فقد أصبح أمام ناظر الناس واقعان ناتجان عن فكرين متناقضين؛ فكر منسجم مع الفطرة والواقع، يقابله ويعاديه فكر مزيف يناقض الفطرة ويناقض الواقع. فالمعركة إذن محسومة والمآلات باتت معلومة.

الخاتمة

هي كما رأيتَ ...

وهي ثمار أراها:

حَصاد نظر، ونظرات بشر،

جُهد المقل في زمن الانصراف عن كنوز الحقيقة،

حَنين الدارج في المعارج، يحدوه حادٍ لا ينتهي بالقافلة عند حد،

شَوق الغوّاص إلى الدرر الكامنة في أعماق بحر المعارف والأنوار،

مُلهمات لمن استلهم، لعله يأتي بما لم تأتِ به الأوائل، فيكون خير خلف لخير سلف.

المراجع

يلاحظ القارئ الكريم أننا لم نستخدم الهوامش للإشارة إلى المراجع، لأننا أشرنا إلى هذه المراجع في متن النص على خلاف المتعارف.
كما يلاحظ أننا لم نقيّد أرقام الصفحات أو أسماء دور النشر أوسنة الطباعة، إلا قليلاً، وذلك لأنّ الغالبية العظمى من المراجع التي جاءت في متن النص هي كتب تفسير أو معاجم؛ فيكفي معرفة اسم السورة ورقم الآية حتى يتيسر الرجوع إلى النص في أي طبعة. أما المعاجم فيكفي معرفة جذر اللفظة.

كتب التفسير التي وردت في المتن:

أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري.

البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي.

التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور

تفسير ابن كثير، ابن كثير.

تفسير البيضاوي، البيضاوي.

تفسير الرازي، الرازي

تفسير السعدي، السعدي.

تفسير الطبري، الطبري.

التفسير الكبير، الطبراني.

روح المعاني، الألوسي.

صفوة التفاسير، الصابوني.
فتح القدير، الشوكاني.
في ظلال القرآن، سيد قطب.
الكشاف، الزمخشري.
محاسن التأويل، القاسمي.
المحرر الوجيز، ابن عطيّة.

كتب أخرى:

شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، الدار الإسلامي، عمان.
صحيح مسلم.
كتاب الحياة ترجمة تفسيرية، ترجمة العهد القديم والعهد الجديد.
ط٤، ١٩٨٨م
عمدة الحفاظ، السمين الحلبي.
مجلة nature العدد ٣١١ سنة ١٩٨٤
مختار الصحاح، الرازي.
من إعجاز القرآن، رؤوف أبو سعدة، دار الهلال. ١٩٩٣